الفصل الثالث: --

انخفض منسوب المياه في آبار الحريق جراء الجفاف الذي أصابهم، وبقي الجد الأكبر لوالدي في مزرعته يعمل مع أبنائه في سقيا النخل، لتلافي موت جذور الثمينة منها، وما يتوفر من المياه حولها يزرعون عليه الخضروات، أما بهيمة الأنعام فقد أرسلت مع أقارب شمالاً حيث المراعي القليلة. كانوا يعملون ليلا شبه عراة، لتلافي تبخر المياه الشحيحة، ويستخدمون أصابعهم لمعرفة منسوب السقي، متعرضين لخطر الهوام الباحثة عن الرطوبة، حامدين ربهم أنهم لا يحتاجون لطحن الحطب لعمل مرق لأطفالهم الجوعى، كما يعمد بعض جيرانهم لطبخ الجلود والحشرات، بسبب شدة القحط. ذات يوم جاءهم بشير بأن مُصرف الرياح، قد أمر سحابة مركومة (من السرايا) أن تنزل مائها عند حفنة سبيع في العرمة، فاخضرت الأرض وطابت مراعيها القليلة، لذا سارعوا مع بهمهم (ماعز وضأن) نحو جبل "هيت" الذي يوجد به كهف تتجمع فيه مياه تعيش فيها "حيتان" صغيرة، وهي سبب التسمية المحرفة، ثم التقوا جماعة من سبعان الحاير وأصهارهم من السهول، والجميع يبحثون عن العشب والماء. جاءهم رجل يلهث قائلا أن أمير جنوب اليمامة (العايذي) مع نفر قليل من صحبه يتجولون خلف بعض الآكام القريبة، هلل الكثير منهم متوعدين بالقصاص لما أصابهم منه، ونصحهم البعض بعدم التهور فقد يكون معه حشد من الحرس القريبين، فيصيبهم أعظم مما حل بهم في الدلم، ولما رفضوا قالوا لهم بوجوب إرسال رجل للدرعية، وأعطوه ناقة نجيبة وهرول مسرعاً نحو الشمال الغربي. بعد سويعات وصل إلى منفوحة منهكاً، ولما عرفوا الأمر أعطوه راحلة مستريحة وتوجه للدرعية، أما قائد حامية البلدة فكان من أقارب العايذي، الذين رفضوا الانصياع لأمره بنقض العهد مع إبن سعود، وبقوا أوفياء مع حركة نبذ البدع والمنكرات فنكل بهم، لذا كانوا هم أيضاً في شوق للانتقام منه، لذا توجه ومعه كتيبة مسلحة نحو المكان. بينما السبعان ينهون صلاة الفجر شعروا بالقادمين من منفوحة، فأخذوا حذرهم لجهلهم بنوايا القادمين، ثم تعارفوا لكن القوم أصروا على مهاجمة العايذي قبل وصول أمر من الدرعية، حيث توجه اثنان من السبور قبل طلوع النهار، وعادوا بنبأ موقع الأمير ورفاقه، وأفادوا أن بعضهم تمددوا للصفرة، فهبوا جميعاً نحوهم حيث وجدوا مطلبهم يتناول قهوة وطعام مع بعض صحبه، وعندما أحسوا بالقادمين في هياج بادروا بإطلاق بنادقهم تجاههم، فطاشت كلها لبعد المرمى، وسارع الأمير لامتطاء راحلته وتوجه

نحوهم ولما عجز عن إعادة تلقيم سلاحه أشهر سيفه، لكن مرافقيه ولوا هاربين جنوباً، فلوى عنق الدابة ثم سارع معهم، إلا أن الأرض غير مستوية و بها أحجار وحفر لذا تعثرت وسقط زيد بن زامل العايذي أمير جنوب العارض صريعاً. في مجلس والدي سمعت جدال حاد حول تلك الحادثة الكريهة، حيث يدعي البعض أن قحاطين منفوحة قتلوه بنيران بنادقهم، وآخرون يقولون أن السبعان أدركوه بعد وقوعه وكسر ذراعه فهشموا جمجمته، ولقد سألته عن ذلك قبل وفاته بخمس سنين فأنكر الروايتين، وقال أن جده الأكبر كان من أوائل من حضروا مكان سقوطه، ولم يكن به أثر من طلقات النار أو كسر في الرأس، بل يبدوا أن فقرة عنقه قد دُقت حينما وقع على الأرض. ناقشت معه مسألة نسب العايذي، التي طال الجدال حولها في مجلسه، فأفادني أنهم من عترة أصيلة، سواء كان قحطاني أو صعصعي، ومثلهم كما قال الشاعر: ـــ

إنا بني نهشل لا ندعـــــــي لأب --------- عنه ولا هو بالأبناء يشــــرينا

وليس يهلك منا ســـــيد أبـــــداً --------- إلا إفتلينـــــا غلاماً ســــــيداً فينا

رحم الله الجميع ونسأله تعالي أن يجنب بلادنا الغالية الفتن، وليعتبر أولي الألباب.

مضت شهور عديدة وسكان الحريق في شظف العيش لانقطاع المطر، واضطر البعض لبيع شيء من أملاكهم لشراء الطعام لعائلاتهم الجائعة، وقلت فرص العمل ولا توجد قدرة لشراء منتجات الحرفيين في الحلة، وتوقف إنشاء المباني والمخازن، بل تضاءلت حتى أعمال الرعي والزراعة المبسطة، وقلت النقود لدى الجميع حتى اضطر بعض من كانوا طيبين للسرقة لدفع المسغبة عن عيالهم، أما وضع التجارة فقد كان أسواء، فقد ارتجت الأمور في اليمامة بعد وفاة العايذي، حيث تولى الحكم أحد أبنائه لكن بنو عمه يتربصون به، والدرعية مشغولة بمناوشات في سدير و القصيم، والأمن مختل بخاصة من مسلحي المرقب وقطاع الطرق ينهبون. في تلك الفترة الحرجة جاء عند الجماعة، رجلان من الحوطة أحدهما قحطاني وآخر تميمي، قالا أن الأمور في سلوى متردية، وتكدست بضائع جيدة من الصين وجاوة والهند، جاءت من مسقط ولم تجد من يشتريها، وهناك طلب عليها عند الترك والروم والفرنجة، لكن لم يجدوا من ينقلها للعراق، حيث المخاطر شديدة. لذا فهم يرغبون شراء كميات منها، ثم نقلها لليمامة وتسليمها للقرينية غرب الحريق، الذين سيتولون إيصالها لعقيلات القصيم، لنقلها للشام حيث تشترى بأسعار جيدة. شعر آل خثلان

بالريبة من ذلك في زمن القحط، والكل يحتال لكسب دراهم حلال أو حرام، واعتذروا عن المشاركة، لكن الحواطى أصروا عليهم وبينوا أن الخوالد في الإحساء والعايذية في الدلم وكثير من أهل الفرع وبرك، سيشاركون في تحمل المخاطر، ويكرهون أن يشذ الخثالين عن القوم. ثم أمضوا ليلتهم يتداولون الأمر، ثم تبين أن المطلوب توفير الحماية لحصتهم، البالغة ثلاثين بعير من الإجمالي الذي ينوف على خمسمائة، كما عليهم تدبير النقود لشراء البضاعة، ورغم معارضة البعض فقد قرروا المشاركة، بعد التأكيد أن زعماء طريق القافلة لهم حصة كبيرة، وسيوفرون حماية شديدة لها. عندما اقتربت القافلة الكبرى من شرق الخرج عائدة من سلوى، صبحتهم أفواج من المهاجمين، وحدث هرج ومرج ولما رأى البعض ملامح الانكسار على حرس القافلة، بادروا للهروب فإن "النحشة" ثلثي المرجلة لأن النفوس أهم من الفلوس، ورأى آخرون الركون إلى الشجاعة الخرقاء فقتل أكثرهم. عمد بنو تميم للاستغاثة بابن عبدالوهاب في الدرعية، فأفرج أبو شوارب عن أسراهم الجرحى، وصادر نصف سلعهم ونكل بهم وغرمهم، أما آل خثلان فرفضوا التوسط بأحد أو طلب شفاعته. التقوا مع بعض المطران والسبعان من أهل الصمان، من المساعدين للدرعية في منع التواصل بين القطيف والبصرة، وتحدثوا عن طباع الأمير سعود القاسية، وأنه خرج من خيمته متجهاً لسرادق جلوسه، بصحبة أربعين من مماليكه الزنوج، كلهم أقصر منه قامة وينتعلون أحذية في أسفلها مسامير، يطئون بها الجالسين في انتظار الفرج، فيهبوا واقفين وبعضهم يولي هارباً، أما السجناء فوضعوا في مربط أشبه بحظيرة البهائم، وعندما مر بجوارهم نادوا يطلبون الرحمة بتوفير الظل والطعام ودواء جراحهم، صاح فيهم بقول "اخسئوا فيها ولا تكلمون" كما أن بعضهم قد اعتذر عن أقاربه أنهم لم يكونوا جزء من القافلة بل عابري سبيل، رد بصلف "هم معهم فهم منهم" فاستعاذ آل خثلان من الكذب على رسول الله، حيث بعد أن نزل أبو بكرة من على سور الطائف، أخبره عن المستضعفين من الشيوخ والنساء والولدان والموالي، فأمر بدك الحائط بالمنجنيق ليخرجوا، ولم يأمر عليه الصلاة والسلام بقتل جماعي، كما يدعي الزنادقة مثل خوارج الباطنية في القرن الثامن! لذا قررت العشيرة أن تفتدي الأسرى بمال وسلاح، وتطلب العوض من الله فيما نهب من أملاكهم، حامدينه أن لطف فيما قدر.

عادوا لبلدتهم بغصة مريرة في حلوقهم، فوجدوا أكثر البيوت في عويل ونحيب، لما أصابهم من قتل وسلب وحبس وإهانة، والعجائز يصيحون بالدعاء على أبو شوارب سائلين الله أن يبتليه بالأمراض الفتاكة، التي لا يصيب بعضها سوى الدواب، ومنها

قولهم "اللهم أخرج من ذيله ما يهد حيله" والبسطاء يسخرون منهن لأن "هذه حيلة من لا يقدر" لكن الله غالب على أمره رغم جهل الناس. قررت الأسرة أن تنأى عن المشاركة في عمليات مع الأمير سعود بن عبدالعزيز، مع استمرارهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون قتال، كما يبقون على استعداد لنصرة من يقع عليه الجور من الغرباء، مع بذل مزيد من الجهد في أعمالهم الزراعية والرعوية والتجارية، لتأمين حاجات من يعولون، ولقضاء ما ركبهم من ديون طائلة جراء ذلك العمل الوحشي الذي حل بهم، ولفك رهن بعض الأملاك التي دفعوا بها الفدية عن أقاربهم. لم تسر الأمور على ما يرام فالمياه شحيحة، والفلاحة ليس بها كثير رباحة، لذا عادوا للعمل مع بني صعصعة في الغوص، حيث كان بحر فارس يزخر بأنواع ثمينة من أصداف الجوهر، مما يعارض فكرة البعض عن أن اللؤلؤ يتكون من حبة المطر الساقطة على المحارة، حيث لا مطر. لكن الباري سبحانه أغاث عباده بالرزق من السماء، فازدهرت المحاصيل واخضرت المراعي، وفي الموسم التالي زادت الأمطار ومشى السيل في وادي نعام حتى التقى مع برك، وبعدها بشهور عاد الجريان حتى بلغ الفيضان حدود الربع الخالي. من المعلوم أن الأرض المروية من السيول المنحدرة من تلال طويق، شمال شرق الحريق، تحمل كثير من المخصبات وهي أبرك من المسقية بماء الآبار، فغدا صغار السن وحتى النسوة قادرون على المساهمة في أعمال الحقل لوفرة المحاصيل. كما أن الحبوب (حنطة وشعير وذرة) تنتج بذور قوية، تجعل حصاد الموسم اللاحق أكثر وفرة وأطيب طعماً، لذا شبع البشر والدواب وأخرجت الفوائض إلى مناطق بعيدة، أما وفرة الحليب فزادت من تصدير الإقط المصنوع من لبن حامض يطبخ ثم يجفف (مضير وقشك) والسمن النجدي الطيب، وصل إلى العراق والشام واليمن وعبدان، أدت الأمطار المباركة إلى زيادة عدد الوعول في براري وادي الفُرع، واكتنازها شحماً ولحماً وسهولة قنصها، وزادت أعداد الطيور الوافدة من الشمال.

في مستهل القرن الثالث عشر (1201هـ) كان نفوذ الدرعية قد هيمن على وسط جزيرة العرب (نجد- العارض- اليمامة) ولم يبق منازع لآل سعود في حَجْرّ ولا الوشم والمحمل أو سدير، وعينوا فيها أمراء يراجعهم أهل البلدات في كل كبيرة أو صغيرة، وهم يراجعون الدرعية مباشرة، أما القصيم فبقيت بعض بلداتها تراوغ، فساعة يدخلون في الولاء، ثم ينشقون (الردة) إذا ظهرت مصلحة مخالفة، ويتلقون الدعم من رجال اسطنبول في الحسا والبصرة. أما اليمامة فقد سقط حكم آل عايذ فيها، بعد أن اقتتل بعضهم مع البعض في نزاع على سلطة واهية، فغدوا لقمة سائغة التهمتها

الدرعية، وليعلم الأحبة أن تنازع الأقارب الدموي يؤدي إلى شرور عظيمة، وبخاصة إذا تكرر في نفس الأسرة، فذاك دليل الخيبة. لقد عين الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود وولده سعود، أحد أقارب العايذي (من آل عفيصان) رئيساً على المنطقة، حيث يعرفون الأرض والسكان منذ قرون، ويراجعه أهل الفُرع والحوطة وليلى في قاعدته بالدلم، وقد سكنت بذلك الأحوال وقلت السرقات والنهب. جاء للحريق منادي من الدرعية للتوجه نحوها، لمبايعة سعود ليكون ولي عهد لأبيه، وأن الشيخ محمد بن عبدالوهاب تولى تدبير ذلك، مع وعد بعطايا جزيلة فسارع ضعاف النفوس للذهاب، أما آل خثلان فقد رفضوا لعدة أسباب أهمها عدم قناعتهم بأسلوب سعود المتغطرس، وما أصابهم من بلاء جراء سطوته وجبروته وما فعله فيهم بدون جرم منهم. كما أن والده الأمير عبدالعزيز مازال قوياً قائماً بالعدل، كما شاعت أقاويل حول اختلاف الرأي في الدرعية حيال ذلك الأمر، كما لم ينسوا قوله لجماعتهم الأبرياء "إنا كذلك نفعل بالمجرمين" مضاهاة لقول الله، وسيحوي نص السيرة تفاصيل الأمر. بعد مدة فوجئ الكثير بالشيخ محمد يخلع على سعود لقب "إمام" الذي كان حصراً على الشيخ، ومع كل تلك الألقاب التعظيمية فلم يعرف لدى الكثير إلا "أبو شوارب" ويقتصر استخدامها على مجلسه فقط. حيث يخشى الكل تكبره وعنجهيته، فقد كان يسارع لتكفير من لا يوافقه الرأي، ثم يناله سلب ماله وهدم بيته وقطع شجره، هذا مع ما يجره ذلك من إهانة أو سفك الدم لأتفه سبب، فعلى من قام بذلك من الله ما يستحق. بعد ذاك تبينت معالم وجود دولة منظمة في نجد، حيث توجد سلطة مركزية في الدرعية، تطيع أمرها المناطق الأخرى، ولا يجرؤ أحد من رؤساء الأقاليم أو البلدات على مخالفة التوجيهات العليا، كما انتظمت الأمور المالية للدولة وجرى ترتيب الأوضاع الأمنية بدقة شديدة، وكذلك أمور القضاء والعدل وتنفيذ الأحكام الشرعية في الإطار الممكن!

لقد اتضح بجلاء أن المهيمن على الأمور هو الأمير سعود، رغم تدخل طفيف من جده لأمه الشيخ محمد، ومن والده الأمير عبدالعزيز، تساءل البعض عما مكنه من ذلك؟ وهل هي القسوة والطغيان وحده. لكن ما سمعته في المجلس يشير أن الأمر يتلخص في إدراك سعود سبب عجز والده وجده محمد بن سعود، حيث عرف الداء الذي عرقل انتظام الدولة أكثر من أربعين سنة، ثم جرب الدواء لتلك العلة. التي تتلخص في "البادية" وهم الأعراب وما أدراك ما الأعراب؟ الجديرون بأن لا يعلموا! لقد أحدث نظام دقيق للسيطرة، يتلخص في تكليف إحدى العشائر القوية في كل قبيلة، أن تختار رجلاً منهم يتولى القيادة. ضمن منطقة محددة بوضوح حسب معالم الأرض،

من جبال (خشوم) أو وديان أو سهول (حزوم) وتكون له الصلاحية المطلقة فيها. حيث يجمع الأموال ويقيم الحدود على المخالفين ويفض النزاعات، ويتحكم في موارد المياه والصيد، لقاء ذلك يلتزم للدرعية بثلاثة أمور. أولها توريد نصيبها من الزكاة أو الغنائم أو رسوم المرور، وثانيها ضمان السكون في مضاربهم سواء لقبيلته أو المارين فيها، أما الثالث فهو الانصياع لأوامر إرسال المقاتلين فور طلب ذلك منه، سواء كانوا لمحاربة أحد من عشيرته أو العصاة أو الكفار. بهذا ضمنت الدرعية الحصول على أموال طائلة وسيطرة بجهد قليل، وأن يستتب الأمن داخل وخارج البلدات وفي الفيافي، ولم يعد أحد يجرؤ على الحنشلة، وشيخ كل قبيلة يخاف أن تسحب الدرعية منه منصبه، لذا يتفانى في الولاء الذي يعود عليه وأقاربه بمنافع جمة. من أبرز أولئك الزعماء آل قرملة لعشيرة قحطان الجحادر، وآل ربيع المخاريم لقحطان العقيق (دواسر) والمضيان لعشيرة من حرب وآل ربيعان لعتيبة (نجد) وآل قطنان لبادية سبيع (رنية) والجرباء لشمر والدوشان لمطير، وكلهم يدينون بالولاء التام للأمير سعود. واختبر جموع منهم في هجوم وحشي على الاحساء، قتل فيه خلق كثير منهم الشيوخ والنساء والأطفال بدعوى أنهم كفار، وسلبت حليهم وثيابهم وأثاثهم، فعلى أهل البغي ما يستحقون من الله.

طوى البلاد نبأ كريه عن وفاة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وشعر آل خثلان بحزن عميق لفقدان عالم قدير في وقت حرج، مع علمهم أنه في مدته الأخيرة اشتدت عليه أمراض الشيخوخة، حتى غدا غير قادر على العمل لتجاوزه التسعين. توجه ركب منهم لتعزية أبنائه وأحفاده وبنو عمه (وهبة المشرّف) وأخواله (العزاز) وراعهم ما شاهدوه في الدرعية من مظاهر السرف والترف، حيث شيدت القصور متعددة الطوابق على سفوح التلال، كما فرشت المنازل والمساجد بأفخر الزرابي (سجاد أو زل) العجمية، و بني لكبار الأمراء بيوت داخل مزارع وارفة الظلال، وغطيت جدرانها بالستائر الهندية الثمينة ، وانتشرت في أرضيتها الأرائك الوثيرة، وتقدم القهوة مبهرة بالهيل وقرن الفل والزعفران، أما الطعام فهو أفخر أصناف الحنطة والرز مع لحوم الضأن النجدية الغالية، المطيبة بالتوابل البيهارية الثمينة، مع أصناف عديدة من الفواكه والحلوى العراقية. أما في الحريق فقد نقص البؤس قليلا وتحسنت بعض الأحوال، فقد تسبب زوال القحط في انتعاش أوضاع الأسرة مالياً، نظراً لزيادة المحاصيل والناتج الحيواني وريع العقارات وإيراد التجارة، فتمكن آل خثلان من استعادة أملاكهم المرهونة، بل أخذوا في شراء المزيد من الأراضي المجاورة لهم. وقد كان أهم ما ساهم في الانتعاش، تولي تركي الهزاني أمر جماعته، فقد كان حالة

نادرة في تلك القرية البائسة، ومن حسناته كف يد أقاربه عن التنازع وقتل بعضهم البعض، مما أدخل الجفاء والهلع في البلدة، خلال القرنين الماضيين، حيث لم يكتف بعضهم بتلك، بل يكيل الاتهام للآخرين أنهم حرضوه وأغووه، ناسياً أن المؤمن العاقل لا يسمح لشياطين الإنس والجان بذلك، إنما هو عذر البليد. ومن ضمن أفضاله أن أعاد بنو عمه (العثمان) من المنفى القسري، رغم أن بعضهم قد أبغضوا القرية بعد أن نكل بهم ذوي القربى وبقوا في الحسا. كان ضمن من عادوا الشاعر محسن، بعد أن تنسك في منفاه وتعذر عن مقولاته السابقة، ونظم أقوال حسنة في الخلق الحميد والثناء على الله، نسأله تعالى أن يجعلها توبة نصوحا، وأن ما لقي في ربع القرن ذاك كفارة له. لم تقتصر مناقب الأمير على هذا، بل كان على عكس الكثير، ذو لسان عفيف ويد سمحة، كما يعرف مكانة بقية أسر البلدة وبخاصة القدماء في الوادي، ولا يخرج عن رأيهم الصائب، وقد كان يحب مجاملة الجميع ويبذل ماله وجاهه فيها، وتقرب من آل سعود ولم ينقلب عليهم أثناء الأزمات بخلاف من سبقوه، حتى في أحلك وقت حينما جاء الجيش العثماني (المصري) وهدم الدرعية وأسقط الدولة السعودية، وقد صاهرهم حيث زوج أخته لأحد أبناء الإمام فيصل، ثم زوج بنته لآخر. يضاف لهذا دوره في انعاش الحرف والتجارة في الحريق، والأمر بالمعروف رغم بقاء بعض المنكرات غير المجاهر بها، بخاصة في الحقبة الكريهة أثناء نزاع البيت السعودي الداخلي (د. س. ثانية) فأدى كل ذلك إلى احتفاظ الأمير تركي بمنصبه لعشرات السنين. إلا أنه بعد موته تنازعت ذريته الشيخة، فهجم عليهم بنو عمهم (الدحاملة) وجرت مقتلة بشعة، وسنورد ذلك لاحقاً في الجزء المتعلق باغتيال الخال، حيث كان محماس الدحملي ابن عم والدة أبي وتلزم الجميع اعتباره خالهم.

مرت السنون وآل خثلان في بلدتهم يباشرون رعاية أملاكهم، وينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف، ويكفون أذاهم عن أقاربهم وجيرانهم، ولا يشاركون في قتال مع سعود أبو شوارب. الذي زادت سطوته بعد أن اتسعت حدود دولته، وغدت لديه موانئ على البحر الشرقي، في القطيف والاحساء حيث تهاوت إمارة الخوالد، تحت وطأت هجماته المتكررة، ولم يبق في الحكم أحد من آل عريعر أو حميد، أو غرير، أو سرداح، أو عمور، بعد أن حكموا بعد الجبور عدة قرون فسبحان من له الدوام. لقد عمد سعود ابن سعود (الكبير) لمد نفوذه نحو شمال وجنوب الخليج، وكان حكم آل خليفة في البحرين قد انكمش من وضعه السابق، حتى غدوا يتركزون في الزبارة، لذا طمح أن يستولي على الساحل من الكويت إلى مسقط. رفض آل خثلان دعوته للغزو، حيث لا يريدون ايذاء المسلمين، لكن كثير من أهل الحريق ذهبوا معه،

أما خوف بطشه أو طمعاً في حصة من الأسلاب (الغنائم) التي لا تجوز من صالح أهل القبلة، وقد تمكنوا من إقناع حاكم المنطقة في الدلم (عفيصان) بذلك فقبل لقاء دفع مال وسلاح وخيل وجمال، فدفعوا عن نفسهم إثم العدوان على المسلمين. لكن وصول السلطان سليم (الثالث) للحكم في اسطنبول، جعل ولاته في العراق يعقدون العزم على القضاء على ابن سعود، وتحرير الاحساء من قبضته، لذا عمدوا لشيخ إحدى القبائل المعادية لهم سابقاً، وجهزوا له جيش عظيم ليتجه للأحساء. وهي قبيلة المنتفق التي تقطن غرب العراق في الأنبار، وتضم أخلاط من عدة أجناس متفرقة، منهم البادية والحاضرة والعجم والكرد، ومن مسلمين ومجوس وصابئة وعبدة الشيطان، ويرأسهم (مع الظفير والعوازم) ثويني السعدون الذي ينحدر نسبه من عامر بن صعصعة، أو من العترة النبوية الشريفة، وكان ذو خصال تشبه الأمير سعود. اتجه ثويني على مهل نحو هدفه، ولم يخرج سعود لمنازلته ودفعه، بل سار للقطيف التي يبغضه أهلها. في نفس الوقت قرر شريف مكة (غالب) انتهاز الفرصة ليثبت الادعاء القديم بحكمهم للأحساء، فخرجت قواته من الطائف نحو هضبة نجد، لذا وردت لآل خثلان استغاثة من أقاربهم في الصمان من العرينات، لإرسال مدد يعاونهم وجيرانهم من مطير، في إبعاد أذى تلك الجموع الغفيرة عن ديارهم، كما سارت فرقة أخرى نحو شمال وديان سبيع، لمساندة المدافعين عن رنية. في خضم تلك الأحداث المتسارعة، هبت الأسرة نحو الصمان يقودهم أحد كبرائهم وحشد من الشباب المقاتلين، ومعهم سلاح حديث يشترونه من مسقط وقطر، يتاجرون في بعضه ويدافعون عن أنفسهم وأقاربهم غول الأعداء بجزء منه. تمكن سعود من دفع أذى الشريف في عالية نجد، فأرسل قحاطين قرملة والدواسر والعتبان وسبيع فصدتهم واندحروا لمكة، أما ثويني فوصل للعتش في جحفل ضخم من العراقيين ومعهم خوالد. وحدثت مناوشة خاطفة معه، لكنه أرسل أحد أعوانه من مطير يرافقه عراقيان، وتباحثوا مع الجميع بشأن قدومه بأمر من خليفة المسلمين، لإنقاذ أهل القطيف من الجور والبطش، وليس لهم حاجة في القتال معهم، بل هم عابروا سبيل، وسيرحلون قريباً لغايتهم، تداول السبعان والمطران حول ذلك، ثم قرروا عدم التعرض لهم وعدم معاونتهم، لكنهم عادوا واشترطوا إعطائهم مقابل علوفة الدواب، فرفضوا لأن المراعي خضراء بعد مطر جيد في برج الثور لكنهم أصروا على تلقي عوض الهدنة. فسألوهم إذا كان هناك أمور أخرى؟ أجابوا بلزوم إرسال عشرة من رجالهم رهائن، لضمان عدم تحولهم إلى كمين يهجم من الخلف إذا بدأت المنازلة. فأبوا ذلك لكنهم بعد المداولة قرروا عدم جدوى القتال، فقد أصابهم شر من مجادلة هذا الجيش الجرار لساعة، وما يريدونه دفع الأذى عن ديارهم

وأهلهم، لذا عادوا إليهم مشترطين لقاء السعدون أولاً. استقبلهم الرجل ببشاشة وحفاوة، وبدت عليه سيماء الشجاعة والكرم، مع ريبة حول غدره ووفاءه بالعهد، حيث تم التوافق على الهدنة بين الأطراف. تجول الرجل في ربوع الصمان التي أصابتها السماء بمطر غزير في ذلك الربيع، وأفادهم أنه رغم زياراته العديدة لنجد، فلم ير مثل تلك الروضات، وهو ينشد قول القشيري: ــ

تنسم من شميم عرار نجـــد ---------- فما بعـــد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحـــات نجـــد ---------- ويا روضه بعـــــد القطار

وأهلك إذ يحل الحي نجــداً ---------- وأنت على زمانك غير زاري

إلا أنه بعد الجوزاء اشتدت حرارة الشمس، وذوت الأعشاب فقرر أن يرحل، لكن رفاقه نصحوه أن يتأخر إلى بعد العيد، فطلب منهم أن يصل منيفة والضمار، وأفادوه أنها بعيدة عنهم، ثم أولم عشاء خاص للسبعان والسهول والمطران، وقرر إعفائهم من دفع نقود العلوفة، لكنه رفض الغاء الرهائن. في يوم النحر ذبح عدد كبير من الإبل والضأن، أضاحي أكل منها آلاف الحاضرين ومن المارة. سار نحو القطيف بعد أن وعد الجماعة أن يعود إليهم بإخوانهم، وحصة من الغنائم التي سيأخذها من ابن سعود، الذي تضاربت الأنباء حول مكانه، فمن قائل أنه في الاحساء يقيم التحصينات لصد الغزاة، وذكر آخرون أنه صلى العيد مع والده في الدرعية. بقوا في انتظار مرير أيام طويلة. حتى عاد إليهم رهائن الخثالين فزعين، قائلين إنهم هربوا بعد ما جرى في المعسكر، حيث دخل أحد الخدم على الأمير ثويني وهو نائم في خيمته فقتله، وحاول أقاربه السيطرة على الأمر، لكن العشائر المتفرقة تتبع كل منها شيخها، وانصرف معظمهم هاربين شمالاً بلا نظام. اختلفت الأقوال حول سبب الحادثة، وشاع خبر أن ذلك بتدبير من الأمير سعود، وقيل أيضاً أنه دسيسة وتحريض من مرافقي ثويني، لكن آل خثلان لم يبالوا لذلك، وأسرعوا عائدين لبلدتهم، بعد أن كفاهم الله مزيداً من القتال.

لم تمض شهور قليلة إلا وورد إليهم نباء مخيف، بأن الحملات الصليبية قد عادت، وأن جحفل في عشرات السفن جاء من بلاد الفرنجة (فرنسة) قد نزل بر مصر الغالية، فتكدرت الأسرة بشدة وأرسلوا رجال للدرعية، لم يتمكنوا من لقاء الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود، لمرضه واعتكافه وتكدر خاطره. وقابلوا ولده سعود على غير ارتياح منهم، فلما قالوا إنهم قد أعدوا أنفسهم للجهاد ضد الصليبية، أجابهم بجفاء

ومراوغة كعادته في حب مجادلة مراجعيه (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) واتركوا مصر، ولما حاولوا ملاطفته بالحسنى، عمد كعادته لإساءة تأويل كلام الله فقال (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فتركوه داعين المولى الرشاد. تباحثوا مع بعض معارفهم العاملين في الدرعية، حول خطورة الأمر حيث انسحب مماليك العثمانية من الإسكندرية نحو إمبابة، ثم تركوه يدخل القاهرة المحروسة وهرب الكتخدا للصعيد، وإنا عازمون الجهاد مع المخلصين في مصر، فأخبروهم بما هو أسوءا، حيث بلغت أنباء أن قائد ذلك العدوان، جنرال فرنسي يقال له نابليون أبو نابرت. وإنه ادعى الإسلام وسمى نفسه الشيخ عبدالله باشا أبو نار، وقد جاء مصر ليحررها من طغيان الترك، وينشر عندهم مبادئ بلاده الثورية (حرية – مساواة – عدالة) وقد أحضر معه مطبعة لنشر أفكاره الإسلامية! لذا انضم معه كثير من السفهاء محبي الخمور والفجور، ممن يجمعهم كل طبال وزمار. قال لهم الصحب أن لا داعي للقلق, فإن الحملات الصليبية توقفت منذ قرون ولن تعود لعدة أسباب، أولها القوة العثمانية التي مازالت تسيطر على أرجاء وسط وشرق أوروبا، وثانيها ما جرى بعد اكتساح القسطنطينية من المسلمين، حيث بقي الارثوذكس على خوفهم أما الكاثوليك أس البلاء فقد صرمهم الله، فانفصلت عنهم دول الشمال القوية، مثل بروسيا وهولندا والأنقليز وأسسوا مذهب أكثر تحريفاً، حيث نفوا قدسية الكنائس وقدرة وزرائها على محو الأوزار، وزادوا على ذلك إلغاء إلوهية أو ربوبية عيسى عليه السلام، وادعوا أن المصطفاة على نساء العالمين، متزوجة من يوسف النجار، ولها منه عدة أبناء مثل يعقوب! وعليه فلا يرون أن القدس هي بلد ابن الرب، ويلزم تحريرها من الكفرة المسلمين. وسبب ثالث هو العالم الجديد الذي اكتشفوه بعد إسقاط الأندلس، حيث انشغل كبار قادة أوربا بمستعمراتهم الذاخرة بالخيرات الوفيرة، سواء في أمريكا الشمالية أو الجنوبية، وفي قارة استراليا وجزر المحيط وجزر جاوة، ولقد حدثت حرب شديدة بين الإنقليز والفرنسيس قبل سنوات في أمريكا، أدت إلى فقدان ملك بريطانيا أكبر مستعمراته هناك، وجاء نابليون الآن ليخرج شركتهم الشرقية من الهند، وليست له مقاصد دينية. كما أن أحد أقارب شريف مكة (مكرم) يعمل هناك للإشراف على أوقاف الحرم في مصر، التي تبرع بها الأثرياء من مسلمي الشرق والغرب، ولديهم مال وفير ورجال كثير وسيدافعون عن مصر. لذا أوصوهم بالعودة في حفظ الله لقريتهم، وقدموا لهم صرة صغيرة فيها دراهم، ليشتروا بها دواء للرجز الذي نزل بالبلاد، وأهلك كثير من الدواب والأطفال، ودعوا لهم بالسلامة والرشاد لطاعة ولاة

الأمر وترك الظنون السيئة، وقد رفضوا قبول النقود وأعلموهم بمغادرتهم للدرعية في بكرة الصباح.

وجدوا المرض (الناعور) قد فتك بالكثير، فاستخدموا دخون من أعشاب صينية، تساعد من هم في المراحل الأولى على التنفس وتجاوز الحالة، أما من امتلاء جوفهم بالصديد وبرز من حلوقهم فيسألون الله لهم الرحمة، أما الطلوع والدمامل الخارجية فعالجوها بالبصل المشوي الحار، المضاف له بعض الخروع وأعشاب تلف بشدة على الدمل، وبعد ساعات يعصر القيح بقوة بعد جرحه بالمبضع الحاد. ثم نزل لطفه سبحانه وانقشع الرجز عن البشر والبهائم، وتفرق كل نحو عمله للدنيا والآخرة، لكن لفترة قصيرة حيث وردت أنباء أسوء من أرض الكنانة، حيث ارتد نابليون عن إسلامه ونزع الجبة والعمامة، وأخذ يقتل العلماء والفقهاء. بل زاد في غيه ودخل الجامع الأزهر بخيله وجنوده، وسفك دماء المصلين فيه، وفرض الغرامات على السكان وصادر ما لديهم من ذهب وفضة ونقود، وأطلق يد عساكره ليبطشوا بالمسلمين والقبط. بعد أيام وصل للحريق رجال أحدهم بملابس عمانية، وأكرمهم الهزاني والتقوا مع خثلاني، عرف أنهم يفتشون عن مقاتلين للجهاد ضد العدو في الشمال، بداية لم يفهم مقصد الحواويش أو الدوشان، لكن بعد التمحيص تبين أنهم سماسرة لجلب المرتزقة ليذهبوا لمناصرة أبو نار، فأغلظوا لهم القول وهددوهم إذا لم يغادروا البلدة، لكن الهزاني يريد ما ينفع البلدة من دراهمهم، لذا غادروا صحبة نفر قليل من أراذل البلدة مدعين أنهم رسل من سلطان مسقط، وأن الدرعية راضية عنهم! بعد أيام جاء مندوب ابن سعود، يحذر من الذهاب للحج حيث إن ادعاء شريف مكة برفع المنع عن النجديين قد يكون باطلا، وشعر آل خثلان بالخيبة لتشجيع القوم للذهاب لمناصرة نابليون الصليبي، ثم عرقلة الحج لبيت الله. كانت الأحوال غامضة ففي غرب البلاد شريف مكة، يهادن الدرعية ساعة ثم يعادي ساعات، بعد أن فشل سادات أشراف مصر في مقاومة نابليون، وزج بهم في السجون وصادر أملاكهم، لذا سارع غالب بن مساعد للتعاون مع الدرعية، وبخاصة مع أنباء الإعداد لغزو مكة من القلزم. أما في الجنوب الشرقي فداهية آخر، يبدل رأيه حسب تغير المصالح، وبدا أنه متوائم مع نابليون الذي يعادي الإنقليز الرافضين لتمدد مزيد من نفوذ مسقط في الهند، لذا عمد السلطان لإعلان دخوله في حركة التوحيد، وإرساله أموال طائلة للدرعية على أنها نصيبهم من الزكاة والغنائم، مؤملا أن فرنسا ستقف في صفه ضد هولندا (جاوة) وبريطانيا (الهند) ومحاولاً خداع الجميع. بعد أشهر قليلة عاد المجاهدون من الشمال بعد أن قتل وجرح عدد منهم، لكن غالبيتهم سالمين حاملين الغنائم والدراهم، وبخهم

الصالحون وتحلق حولهم البسطاء، يسألون عن مصر وأبو نار، لكنهم صرحوا بعدم ذهابهم هناك، حيث اقتادوهم نحو بلاد الحويطات والشرارات، ثم اتجهوا للشام مع عساكر نابليون البالغ عددهم نحو عشرة آلاف (البقية في مصر) وجنود العربان يزيدون عن ثلاثة أضعاف ذلك. أثنوا على حكمة وشجاعة بونابرت، وما لديه من أسلحة ومدفعية حديثة فتاكة، يعاونه ضباط مهرة وعساكر أشداء، وقد دخلوا العريش، ثم غزة بسهولة، ثم توجهوا نحو يافا وحاصروها أيام طويلة، كان أبو نار أثناءها يكثر ادعائه محبة العرب والإسلام، وأنه إنما جاء يحارب مماليك الترك ويدافع عن الخليفة! لكن حقيقته ظهرت عندما أعطى الأمان لجنود الحامية، ولما استسلموا ذبحهم جميعاً على سيف البحر. ثم ساروا نحو عكا للقضاء عليها والتوجه شرقاً للصعود إلى دمشق الفيحاء، لكن معظم العربان معه أبغضوه وغادروا المكان، يترصدون ليلاً لسرقة ما لدى الفرنسيس. ولما قلت المؤن واشتدت شمس برج الجوزاء شعر الجنرال بالانكسار واستحالة دخوله أسوار عكا، بعد أن عرف الجميع غدره وخسته، لذا قرر الانسحاب والعودة لمصر. لقد كانت الثلاثة عشر شهراً كافية فعاد لفرنسا متخفياً محملا بالتحف الذهبية من مقابر قوم فرعون، وادعى هناك أنه حقق انتصارات باهرة، تجيز له الاستيلاء على السلطة وتنصيب نفسه إمبراطور. ترك في مصر كبير مساعديه يحكم الخانعين، فقيض الله لرجل من الأرض المباركة أن ينفرد به في حديقة قصره، فلوى ذراعه اليسرى حول صدره، ثم أغمد خنجره المعقوف في خاصرته و "خثل" بطنه فسقطت أمعائه على التراب، وسارع الحرس نحو الحلبي الشهيد دفاعاً عن الإسلام. شهور قليلة مضت ثم جاءت قوات عثمانية، كان أحد ضباطها ألباني خبيث يتاجر في التنباك، قدر الله أن يدمر نجد لاحقاً وتحكم ذريته أرض الكنانة لقرن ونصف، وتمكنت تلك الفرقة من طرد الفرنسيين، وبقي البعض منهم من ممتهني الصيدلة، والبارود، والرسوم التصويرية، والكيمياء. رغم قلة عدد المرتزقة الحراقى ممن رافقوا تلك الحملة، إلا أن قصصهم كثيرة للغاية، وجاءوا بكثير من الأسلاب النادرة، ومعهم نقود غير شائعة في اليمامة من قبل، وأهمها درهم فضي كبير يقال له تالر، أصدره ملك بروسيا تالر قبل مئات السنين، واستخدمته أسبانيا والبرتغال في مستعمراتها الغربية (مكسيك وبرازيل) بإسم دالر (دولار) بينما استمرت تستخدم عملاتها (بيسو وبيزيتا) داخليا، لكن التالر كان رديء السبك لم يلق قبول في اليمامة رغم انتشاره في مسقط والشارقة. وكانت أسرة هابسبرغ قد سكت قبل خمسين سنة عملة جديدة، بمعدات متطورة ويصعب تزييفه، وسموه رويال تالر أي الملكي (ريال) ووضع زعيمهم "فرانسوا" اسمه وصورته عليه لذا سمته الأعراب ريال فرانسة، لكنه لم ينتشر في

اليمامة لثقل وزنه وغلاء ثمنه، وبعد موته قامت أرملته بتحسينه ووضع اسمها (ماريا تريزا) وصورتها عليه، ولم يفطن قومنا لصورة المرأة وشعرها لذا سموه ريال "أبوشوشة" ولم يلق رواجاً. لكن العائدون من تلك الحملة أحضروا كميات كبيرة منه للحريق، وكانوا فيه من الزاهدين، لذا عمد أحد القادمين من المذنب لإقامة مصهر صغير، يستخلص منه الفضة الرخيصة ثم يصيغ منها أساور وخلاخل وحلي. كما أحضر البعض منهم كمية من الروبيات وقطع الذهب الإنقليزية (زنة 7 غرام) الرائجة آنذاك مما أحدث ثراء وقدرة شرائية أنعشت البلدة، التي كان عدد من تجارها وحرفييها خبراء مقتدرين، في معرفة القيمة الحقيقية للنقود الواردة من أماكن مختلفة، بعضها زائف أو لا يحوي سوى أقل من ثلث وزنه من المعادن النفيسة، والبقية حديد أو نحاس أو نيكل، ذات القيمة الأقل. لكن ريال تيريزا النمساوية المحسن (الفرانسي)أدخل الطمأنينة للعامة، الذين غدا معظمهم يعرفون العملات الأصيلة من تلك المنبوذة، وحتى يومنا هذا مازال ذاك الريال يستخدم في الأسواق الشعبية لوزن الزعفران وعود الدخون، حيث يلقى قبول الكثير لارتفاع وزن الفضة فيه، حيث تبلغ سبعة أثمان بينما في التالر القديم تبلغ الفضة ثلاثة أرباع فقط، علاوة على ذلك فإن حجمه ملائم، حيث يزن أوقية طعام كاملة (28 غرام) وليس أوقية سبائكية (31 غرام تروي أونص) وهو سميك وقطره صغير (4 سم) مما يسهل إخفائه. زيادة على النقود جاءت مع العائدين قصص كثيرة عما رأوه وسمعوه في ذلك المطراش، فقد هالهم ما لدى الفرنسيين من بغض للاغتسال وتسامح مع النجاسات، وطباع الغدر والخسة فيهم، أما الفواحش فيرتكبون ما تترفع عنه الحمير والخنازير على حد قولهم، وليس فيهم محموداً إلا حب القراءة والعلم على مختلف فنونه. كما يحترمون شعائر المسلمين، ويعجبهم اصطفافهم للصلاة جماعة، ثم تفرقهم لأداء النوافل منفردين. أما عدالة حكمهم فهي مقبولة، حيث فرضوا مسبقا أن القائد له عشر الغنائم والأسلاب، والباقي يوزع بينهم للخيال ثلاثة أسهم، وراكب الناقة سهمان، أما من راحلته أتان أو حمار فله سهم واحد، ولم يغلوا أحد منهم في سهمه. بقي أن نقول أن معظم أولئك المسترزقين قالوا أن ذهابهم كان لسبب واحد – "الجوع"- لكنهم للأسف لم يكونوا من أهل التدبير الحسن، فقد أكلوا كل ما حصلوا عليه من تلك الحملة الكريهة، ولم يدخروا شيئاً لقابل أيامهم، بل جميعهم "من يده إلى فمه" خلال فترة قصيرة ثم عودة للمسغبة. في مجلس والدي تواجد بعض ذرية أولئك، وكانوا يردون بحكمة على استهجان الحضور لمشاركتهم الفرنجة في عدوانهم على المسلمين، مما سنورد شيء منه في صلب السيرة، لكني هنا أشير فقط لما أورده أحدهم، عن مشاهدته قافلة فيها أكثر من خمسين

بعير، يقودها رجال من بلي، أرسلها أبو نار للأمير سعود أبو شوارب، ضمنها ثمانية جمال يحمل كل منها صندوقين خشبيين، في كل صندوق خمسة أكياس في كل واحد ألف ريال فرنسي. والبقية فيها عشرة جمال محملة ببنادق حديثة لا تحتاج إلى إشعال فتيلها، بل يكفي حشو خليط البارود والرصاص من فوهتها. ثم يقدح الزناد بالإصبع فتحدث شرارة داخل البندقية تشعل المقذوف، لذا فهي لا تتعطل أثناء المطر. ثم عاد البلوية بعد تسليم القافلة، حيث منحهم الأمير اثنان من الجمال المحملة بالطعام وشيء من الدراهم. لقد كان والدي يشكك في تلك الرواية، لكن في أحد الأيام كان في المجلس رجل مصري مع والده، الذي شهد للجميع أن جده كان مع حامية تلك القافلة، التي التقت ابن سعود على مسافة مرحلتين شمال غرب المدينة المنورة، وأكد أنهم قد عادوا لمقرهم قبل هلال رمضان عام 1213 هـ، وبعد ذلك بشهور أثير البحث بحضور شاب سعودي يدرس التاريخ، وأفاد أن الوثائق التركية والفرنسية تبين وجود اتصالات بين الطرفين، بوساطة من سلطان مسقط وشيوخ الشارقة. واستمرت الاتصالات حتى بعد هزيمة الإمبراطور نابليون ثم سجنه وهربه من السجن وعودته للحكم، ثم استأنفت الاتصالات حتى قبيل هزيمته الثانية في روسيا حيث كان يطمع أن تساعده الدرعية في فتح جبهة جنوبية ضدها عام 1225هـ. لقد كان والدي يشكك في الأقوال بأن الإمام سعود بن عبد العزيز كان يتعاون مع نابليون، وبعد مغادرته العمل الحكومي بعشر سنوات وانقضاء المجاملة الرسمية، سألته عن ذلك فقال إن عمه زيد لم يذكر له هذا، ولو أن أجداده عرفوا عنه لتحدثوا فيه، وقبل انتقاله لرحمة الله بسنوات أشار لمسألتين، أولاهما معرفة الإمام بعدم جواز اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وثانيهما وجوب العودة للمصادر التاريخية القديمة في مسقط وفرنسا لبحث الأمر حيث أغفلته المصادر المحلية، مع الحذر من تدليس الرافضة والليبراليين المبغضين للإمام سعود.

في مستهل القرن التاسع عشر (1801م) كانت الحريق، بل اليمامة وربما وسط جزيرة العرب كلها في سكون، غير مدركة لحدوث الثورة الصناعية في أوروبا، رغم ورود منتجات مطورة من المعادن الصلبة والأسلحة الحديثة والأقمشة الطيبة (هدم أو هدوم). إلا أنهم لم يعلموا عن الفرن العالي لصهر المعادن، ولا الآلة البخارية، ولا مكائن النسيج العملاقة، وبالطبع فلم يشارك أحد منهم في تطوير تلك المخترعات، التي ستغير طباع الحياة كلها، كما نعرفها الآن في القرن الحادي والعشرون. وكان آل خثلان قد سرهم الذهاب للحج في صحبة الإمام سعود، حيث خفت ظنونه تجاه شريف مكة، وحث الكثير من أهل العارض لمرفقته لمكة، واتجه الركاب غرباً نحو الحوية ذات الجو البارد في برج الحمل، ولما اغتسلوا وهبطوا مع درب السيل، بدأت

تخف البرودة ثم صار الهواء دافيء عند زيمة. ولما دخلوا مكة زادها الله تشريفاً كان الهواء حار، لذا عمد المئات من حرس ابن سعود لنزع الرداء، وكان مظهرهم وهم بالإزار حاملين بنادقهم العتيقة ورافعوا سيوفهم ورماحهم، يتحلقون حول أميرهم وصحبه يثير الاستهجان. بخاصة مع ارتفاع أصواتهم وكثرة حركاتهم، وبشرتهم المصفرة بخضرة من لوحة شمس وغبار نجد، لا يسمحون لأحد بالاقتراب من الدائرة الداخلية، التي فيها ابن سعود وأقاربه وأصهاره، يصطحبهم حشد من آل قرملة والربيعان والقطنان والمضيان والجربا، الذين كان مظهرهم يتسم بالوقار، ودخلوا الحرم من جهة الشرق، حيث لاحظوا أن جنود الشريف قد أبعدوا العامة، ومنعوا المظاهر الرديئة من شرب الدخان أو الشيشة، أو إدخال الدواب لأجزاء من بيت الله الحرام. بعد إتمامهم الشوط السابع من الطواف وأداء الركعتين، جاء من ناحية الصفا الشريف غالب ليس معه سوى نحو عشرة أشخاص من أقاربه وخدمه، وفي المقدمة كبير مساعديه الذي أفسحوا له حتى وصل عند الإمام وحياه بقبلة على جبينه. ثم تصافح سعود وغالب، الذي كان دائم الابتسام والترحيب والتودد، بينما ابن سعود لم يكن متجهماً ولا متبسماً، وسار مع الشريف تجاه باب الكعبة التي أحضر نحوها الفراشون سلم محلى بالفضة، وصعدا مع بعض كبار المرافقين والأغوات. حيث بقوا دقائق قليلة ثم اتجهوا نحو بساط وثير يستند على غرفة المقام، في ظل القبة لأداء الركعتين، وكان غالب قد عرف شيء يسير عن مذهب السلف قبل شهور، حينما أرسل للدرعية يطلب معلمين يشرحون العقيدة الصحيحة، وذلك حينما كان نابليون مازال يهدد الحجاز، وسليم في إسطنبول عاجز عن الدفاع. أشار مساعد الشريف (عثمان) بإصبعه فهرول عدد من الزمازمة، يحملون دوارق فخارية مدببة وأكواب نحاسية فخمة، وصب أحدهم وقدمه للشريف فأشار عليه أن يبدأ عند أبوعبدالله، ثم صب آخر من دورقه فشرب، لكن سعود بدا كأنه يشم الماء وقال هذا مبخر، ثم صاح على "الحِرّق" وهو شاب زنجي ذكي ونشيط محل ثقة، وأمره أن يذهب مع بعضهم ويجلبوا له زمزم من دلاء البئر مباشرة. فهم الجميع أن سعود يشك في السم، وعجائز الدرعية يقولون "سوء الظنية من الفطنية" والعرب قديماً تقول "حسن الظن ورطة" وسبق أن دُس السم لأحدهم في الحرم! دعا الشريف (ابن مساعد) الأمير لمرافقته لمقر سكنه، فرفض لأنهم أهلوا بعمرة متمتعين بها إلى الحج، لذا سيتجهون للمسعى لإكمال المناسك، فأخذ بيده وأشار صوب جنوب الحرم نحو تلة في أعلاها مبنى أبيض صغير، وقال هذا منزلي لكنه لم يكتمل بعد، لذا رتبنا لكم أحد قصور القشاشية، لتتمكنوا من أداء الفرائض الخمس في الحرم الذي لابد أنكم في شوق شديد له. بدا

على سعود كبح جماح الرد عليه، بشأن منع النجديين عن الحج، لكنه على خلاف عادته بدا مجاملا للغاية للشريف، فرد بالقول إن المصطفى في حجته ذهب للعدل حتى يوم التروية، ورجاجيلنا نصبوا مخيم هناك، فلم ير بد من تأييد رأيه مبيناً أن حول الحرم زحام كثيف، وهناك أمراض سارية وفدت إلينا من البنغال والهوسا. ثم عارضه قائلا إن بقائكم في الخيام كل تلك الأيام فيه مشقة لا نرضها، ولدينا منزل كبير في الجميزة قريب من الأبطح، سنرتبه لسكنكم فأشار الأمير أنه سيرسل أحد أبنائه ومرافقيه للاطلاع عليه شاكراً له حفاوته.

قص العم زيد بن عبدالله (الكبير) على والدي، أن جده علي بن حمد كان مع نحو خمسين من الأسرة الذين أدوا فريضة الحج تلك السنة من بينهم والده، وكان برفقة ابن سعود نحو ثمانية آلاف من أهل نجد، منهم عدد غفير من آل سعود وأقاربهم، كما كان معه عدد كبير من بادية الحجاز وعسير. اختار أحد اخوة أبو شوارب، الجد علي واثنان من أبناء عمومته، اعضاء في فرقة خاصة تتكون من خمسين مقاتل برئاسته، تتولى مع أربع فرق مسلحة أخرى التناوب لمرافقة الأمير، ومراقبة من يقتربون حوله، وابعاد من قد يحتمل حدوث أذى منه. وقد كان الأمير سعود كثير التوجس والريبة، الا انه غير كثير من طباعه الفظة وغلظة قوله، وهو في جوار البيت الحرام، وفي مكان يتولاه الأشراف الأعداء لجده محمد منذ نصف قرن. وقد قامت فرقة الجد بعملية تفتيش دقيقة لقصر الجميزة الأبيض، قبل ان يدخله سعود بن عبدالعزيز، فبحثوا بتمعن عن احتمال وجود كميات من بارود المدافع، مخبأة في مكان قريب من غرف إقامة الأمير، قد تستخدم لنسف المكان واغتيال من فيه. كما وجههم أخو الأمير لفحص الأطعمة، حيث يحرص سعود على تناول الغذاء المجهز من قبل نسائه أو الثقات من خدمه، خوفاً على سلامته ولكثرة هواجسه. كانت اعمال فرقة الجد تتركز في ساعات قليلة، من قبل الظهر حتى بعد العصر، لكنه يتطلب الكثير من الحرص واليقظة، والعمل الدقيق لتلافي المخاطر.

أقام الخثالين مع نسائهم وأطفالهم في مخيم خاص شمال المحصب، ويتجه بعضهم نحو المسجد الحرام بعد الظهر، لأداء صلاة العصر ثم التجول في أسواق مكة العامرة، ثم يعودون لمسكنهم بعد صلاة العشاء. لقد لاحظوا الجموع الغفيرة من الشام والعراق ومصر والمغرب، إضافة للعجم والهنود والجاوة والزنوج، إلا أن معظم البضائع المجلوبة ليست ذات "ثمار" فلا تصلح لإعادة بيعها والتربح منها، بل أكثرها للاستخدام الشخصي، مثل الملابس والعطور ولعب الأطفال "والخماخم" مع قدر كبير من

الأطعمة، مثل الزبيب اليماني والسكر الجاوي والزيت الشامي، إضافة للنُقل مثل الجوز واللوز، كما توجد حلي نسائية بسيطة، أكثرها لا تصلح إلا هدايا للأقارب والجيران والمحبين. مما لفت انتباههم الساعات الثمينة، معظمها يبلغ قطره نحو عرض الأصابع الوسطى الثلاثة، ويحمي زجاجها غطاء معدني لامع، وفي أعلاها حلقة تربط فيها سلسلة معدنية حتى لا تسقط من الجيب أو تسرق، ويجري تشغيلها بإدارة زنبرك أعلاها مرة كل بضع ساعات، ويعدل الوقت عند الغروب لتكون في تمام الثانية عشر. عدو تلك الساعات هو السقوط فتنكسر سريعاً، أو إذا تعرضت للرطوبة من عطر أو عرق حيث تتعطل حركتها، ويوجد على صفحتها ثلاثة إبر تدور حول أثني عشر رقماً، أسرعها إبرة الثواني وهي بلون أحمر، تشاهد حركتها السريعة ويسمونها العقرب، أما الإبرتين الأخريين فواحدة للدقائق وأخرى للساعات، تسيران ببطء شديد. السلعة الرائجة أيضاً هي الفرد، وهو موجود في الحريق لكنه بفتيل، لكن الحديث منه يقدحه زناد داخلي، وهو صغير يسهل إخفائه في طيات الثياب، إلا أن مدى إطلاقه للنار ضعيف. أثناء السمر مع بعض من بقية أهل الحريق أو السبعان، كانوا يتبادلون الملاحظات على ما شاهدوه وسمعوه، حيث قيل أن الشريف سارع بطلب الغليون والدخان، بمجرد أن غادر سعود المطاف، كما بدا أنه متأفف من التعامل معه، حيث إنه أكبر سناً ومن السلالة النبوية المطهرة! كما يقال له أنه حاكم أم القرى ووالي من قبل خليفة المسلمين في الأستانة، أما سعود فما هو إلا أحد أبناء أمير قرية الدرعية، لا يحيط به سوى القتلة واللصوص الخارجين على ولي الأمر.

حدثهم الجد أن مأدبة عشاء فاخرة أقيمت أعلى تل جياد، حيث مازال منزل غالب تبنى مرافقه، ولصعوبة الصعود أحضروا بغال لكبار الضيوف، لكن الأمير الأصغر سناً والأقوى بنية من الشريف، أبى ركوبها ومشى المطلاع كله. وقد أعجبه المشهد العلوي، حيث يمكن للجالس في الفناء الأمامي مناظرة الطائفين حول الكعبة المكرمة، كما أن الموقع يكشف كافة الأسواق والدور والسكك. وحكى لهم أحد الأخوياء أن أبو شوارب كان ينام مع رجاله في المخيم، ولا يذهب لمنزل الجميزة إلا بعد صلاة الصبح، حين يعد له خدمه ونسائه القهوة والطعام في أمان، وذاك البيت من ثلاثة طوابق ذو لون أبيض ناصع، خلافاً لما يحيط به من مباني ذات ألوان داكنة كئيبة، على واجهتها رواشين خشبية قديمة لوحتها الرياح والشمس والمطر، وهو متسع وفخم لا يمكن مشاهدة الحرم منه، وقد أمر سعود رجاله ببناء قصر له في أعلى الجبل الواقع شماله. لقد سألت والدي عن ذلك المنزل وشرح لي أنه قد أزيل قبل زيارته الأولى لمكة، وأقيم شرقيه قصر "السقاف" الذي امتد حتى سفح الجبل شمالي "الخريق" وقد

بناه أحد أشراف حضارم جاوة، وسكنه الملك عبدالعزيز لاحقاً، كما حضرت وليمة أقامها الملك سعود لرؤساء وفود الحجاج، ثم دخلته بعد انتقال والدي لرحمة الله، حيث توجد فيه مكاتب رابطة العالم الإسلامي. أما المبنى أعلى جبل جياد فقد صادره محمد علي الألباني من الشريف، وعوضه بقروش نحاسية مصرية لا قيمة لها، ثم أضاف إليه مهاجع لجنوده الذين احتلوا مكة، ورصف الطريق حتى تصعد الجمال إلى القلعة، حاملة الذخيرة والسلاح والطعام وتجر المدافع الثقيلة. وقبل سنين قام خادم الحرمين الملك فهد، بتسوية الأمر مع ورثة الشريف غالب وحكومة تركيا، وأزال القشلاق بل وكل الجبل وأنشاء مكانه وقف للحرم، من عدة مباني وأسواق وفنادق ومصليات ومرافق أخرى، أسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته رحمه الله.

في يوم عرفات كان الجو حار، وارتفع الغبار من نحو مائة ألف حاج في ذلك الصعيد المبارك، وهطل مطر خفيف شمال نعمان، عند المشعر الحرام ذكر الجميع الله، أما عند منتصف الليل فهبت رياح باردة، ارتعدت منها أبدان أعراب نجد، الذين تركوا أرديتهم في منى، لذا سارع الكثير منهم لمغادرة مزدلفة قبل مغيب القمر، أما الأمير وحاشيته وصحبه، فقد صلوا الفجر ثم نفروا بعد طلوع الشمس للمرجم. كان الكل يلاحظون البدع الكريهة والمزامير، وبخاصة مع المحمل المصري المسلح بقوة، وكذلك المحمل الشامي ألذي يرأسه ضابط كردستاني كبير، ترافقه كتائب العساكر ببنادقها ومدافعها وطبولها. أما سعود فتظاهر بعدم مشاهدة ذلك ولم ينكر شيء منه، ورغم آلاف المسلحين معه فقد بدا غير راغب في إحداث مقتلة أثناء الحج، مما حدا بالبعض لاتهامه بحب الأهداف الهشة والثمينة. بقي أفراد الجماعة في مكة عدة أيام لشراء بعض الحاجيات، وأصاب بعضهم تلبك باطني من الطعام المكي، المليء بالبصل والثوم والبهارات الحريفة، لكن المشكلة في القلي بالزيت الرديء من بورما والملايو. في المساء تسامروا حول بعض ما شاهدوه في الموسم، بخاصة إطالة اللحى وعدم تهذيبها، كما عمل صاحب السنة خال المؤمنين ابن الفاروق، الذي لا يطيلها أكثر من قبضة اليد، وعزوا ذلك لبعض غلاة فرق متناثرة مثل البهائية، والصوفية، والقاديانية، والبهرة. كما تكلموا في عثمان العدواني، أهم مساعدي الشريف غالب ذو الكلمة المسموعة في مكة والمحب للسنة المطهرة. وبين أحدهم أنه ليس من عتيبة لكنهم أخواله، لذا فهم يجتمعون حوله ويساندوه، وقد بداء العمل مع الشريف مديراً للضيافة، لكنه بعد تفوق أدائه وحسن خلقه، غدا رئيساً للديوان ثم زاد نفوذه بعد أن تزوج إحدى أخوات الشريف، الذين عادة ما يرفضون تزويج العامة من بنات الأشراف. وكثر حاسدوه فعايروه أنه "مضايفي" لكن ذكاءه قاده للفخر بذلك اللقب

حتى لا يكون منقصة عليه، وأصبح يلقب نفسه كذلك شفوياً، بل وكتابياً، فمحا بفطنته انتقاص المبغضين له همساً. وتساءل أحدهم عن "أبو نقطة" المقرب من سعود وغالب، فقالوا له أنه من المحبين للسنة المبغضين للبدع، وهو أمير منطقة عسير ويتبعه قبائل المتحمية من رفيدة قحطان، ومن ألمع عدنانيو الحجاز، كما يتبعه أربعة آلاف من "الرجال" المقاتلين الأشداء، من عدة قبائل في تلك المناطق.

في الحريق عاد آل خثلان للاهتمام بأهلهم وعملهم، داعين الله أن يجلب السكون للديار، خاصة بعد أن أدى الأمير سعود الحج، وعاد مغفور الذنوب ليبداء صفحة جديدة في حياته تجلب الرخاء والطمأنينة للناس. لكن بعد شهور تكدر الجميع من أنباء كريهة، عن مذابح جرت شمال شرق نجد (الزبير) وجنوب غرب العراق (كربلاء) حيث شنت قوات الأمير سعود هجمات على العجزة والنساء والأطفال، جرى فيها قتل الكثير وسلب أموالهم وحليهم وأثاثهم، بل وملابس البعض. تحدث البعض في مجلس والدي عن تلك المذابح، وأنكروا ما يماثلها من جرائم الخوارج ثم القرامطة والصليبيين، أما أبي فوسم ذلك بالمبالغة والتهويل، ولاشك أن كثير من الحراقى كانوا يبغضون أبو شوارب، لما ظلمهم به من قتل وسلب وإهانة، كما ذكر البعض أن أبناء سعود هم من ارتكبوا الجرائم بلا علم منه، بينما أكد آخرون مشاركته في المجازر، وأشار بعضهم أن الجبناء توجهوا نحو البصرة لإفسادها، ولما وجدوها منيعة ولوا مدبرين. ربما يتفضل أكاديميوا التاريخ بالبحث في مصادرهم، حتى المخطوطات القروية المسجوعة الساذجة المنتشرة في قرى نجد، بعد أن حث الشيخ محمد الكثير لتدوين المغازي والسير في مطلع دعوته، ليتم جلاء حقيقة الأحداث التي غدت مسبة على الدرعية حتى من مؤرخي الحجاز في تلك الحقبة، حيث هذه السيرة الشخصية ليست من مصادر التاريخ. لم تمض سوى شهور حتى ارتجت اليمامة، بل جزيرة العرب كلها، لحادثة اغتيال الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وهو يصلي في المسجد وإصابة أخوه عبدالله (جد3 الملك عبدالعزيز) بينما كان الأمير سعود في الخارج. وقيل أن القاتل فارسي أو كردي رافضي، لينتقم لما جرى في كربلاء، وقد أصاب الكدر الشديد آل خثلان لتلك الفاجعة، وسارعوا للدرعية لتعزية أخاه والدعاء له بالرحمة، حيث يعلمون أنه اعتكف لعدم رضاه عن أعمال القتل الهوجاء. بعد ذلك صفت الأمور لسعود لتولي شئون الدولة، وقد لاحظ بعض الجماعة أنه كان يقرب العبادلة، خاله وأخاه وولده ويصغي لهم، لكن ثلاثتهم كانوا يخشون سطوته، فلا يشيرون عليه إلا بما يعرفون أنه يهواه! وفي نفس الوقت كان لا يقبل رأي من عمه عبدالله، أمير النقاء والحكمة رحمه الله. رغم انشغال اسطنبول بنزاعات كتائب الجند

مع وزراء سليم ومع رجال الدين، فقد أرسل الصدر الأعظم السلاح والمال والرجال لشريف مكة، وكلفه بمحاربة الدرعية، ودفع أذاها عن المسلمين والحجاج، لذا أعلن غالب بن مساعد عن نقضه الصلح مع أبو شوارب، الذي بدوره خابر ألمضايفي وأبو نقطة اللذان بقيا على العهد معه، وكلفهم بإخراج الشريف من مكة، فتوجه لجدة وتحصن فيها. ثم ذهب إليهم سعود وحاصر جدة أياماً قليلة، فلما وجدها منيعة انصرف عنها، وأين ذلك مما قام به الملك عبدالعزيز في القرن التالي، من حصار الشريف (علي) في جدة ثلاثة عشر شهراً، حتى أرغمه على المغادرة إلى العراق سلماً؟ أثناء ذلك دانت المنطقة لسعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود (أبو شوارب، الكبير) سواء في الحجاز أو نجد والحسا وحوران درعا الشام وجنوب العراق والحديدة، وباشر في بعثرة القبور وهدم المزارات غير الشرعية، ومنع عصابات سلب الطرق، وأمر أهل مصر والشام بالعودة بكسوتهم وسلاحهم وطبولهم، فتعطل الكثير عن دخول المشاعر للحج. في تلك الفترة كان آل خثلان ينزهون أنفسهم عن المشاركة في أعمال سعود الحربية وحتى أداء الحج معه ليتكاثر على الناس، بينما انبرى بعض أهل اليمامة، بل ومن الحريق للقيام بذلك، طمعاً في الأسلاب التي يوزعها عليهم ويحتفظ لنفسه بالخمس، مدعين أن تلك هي السنة وإنما هي من وسواس إبليس.

في مطلع العقد الثالث من القرن الثالث عشر (1221هـ) ذهب الأمير سعود للمدينة المنورة، ورغم حجاته العشر فلم يذهب هناك إلا مرتين، حيث لا يبدو أنه قابلاً لحديث من حج ولم يزرني فقد جفاني، وقادوه هناك للسلام على المصطفى، ودخل الحجرة الشريفة حيث لحد خير البرية عليه الصلاة والسلام، وهاله ما شاهده من هدايا أمراء المسلمين الثمينة للمرقد المبارك، الذي تزيد بركته عن المسجد الأقصى، حيث قبر سليمان ابن داوود عليهما السلام، وبخاصة الشمعدانات والمصابيح الغالية، وروى ابن ماجة أن الرسول حث الصحابة لإهداء زيت إضاءة للقدس . ثم بعد خروجه استدعى بعض رجال الدين! في المدينة، وأصدروا له فتوى شرعية بجواز بيع تلك الهدايا، ووزع بعض القيمة على الفقراء، لكنهم حذروه من التعرض "للكوكب الدري" وهي الماسة لا مثيل لها، أهداها أحد مهراجات الهند لتوضع على عمود يرتكز عند الرأس الشريف، حتى يعرف الزوار الاتجاه عند تقديم السلام الشرعي. ولتلك الألماسة قصة نسردها في صلب السيرة ونوجزها هنا، فقد كانت جزء من ألماسة ضخمة عند المغول، سموها لاحقاً جوهرة الدم المشؤومة، حيث كل من يحوزها يعاجله الموت، وقد حاولوا عدة حيل، بل وسحر لإزالة اللعنة المغروسة فيها، فدفنوها مع القاذورات النجسة سنة كاملة ولم يتغير حالها، ثم قرر مسلمو الهند كسرها لنصفين، سموا الأول

جبل النور (كوهي نور) والنصف الثاني أسموه الكوكب الدري، الذي أرسل للمدينة المنورة هدية للقبر الشريف، فلم يتعرض لها أبو شوارب. لقد أدى استيلاء سعود على مكة والمدينة، وبعثرته للقبور وبعثه رسالة للخليفة بمنع قوافل الحجاج المصحوبة بالدفوف لتنظيم مسيرة العسكر، وإدخال المذهب الحنبلي فيها بدل الحنفي، إلى هزة كبرى في اسطنبول، حيث المدينتين أساس إدعاء العثمانيين بحمايتهم للإسلام، وقد أصبحتا تحت هيمنة من يرونهم خوارج على ولي الأمر. لذا تقرر حسم الخلاف واشتد نزاع السلطان سليم ومصطفى والانكشارية والفقهاء المتكسبين بالدين، وانتشرت الحرائق والمذابح في عاصمة الخلافة لشهور عديدة، وانتهى الأمر بتعيين فتى في مطلع العشرينات ليكون الخليفة، وهو محمود بن عبد الحميد الأول الذي اتسم بالدهاء والحزم وحسن التدبير، مع تعطش لسفك الدماء وقتل من يعارضه والبطش بالمناوئين. وبعد أن تمكن من إحكام سيطرته على الخلافة خلال شهور، سارع للالتفات لأرض الحرمين، وحيث سبق أن جرب أسلافه ولاة العراق والشام بلا طائل، لذا أمر والي مصر الألباني بالتوجه لتطهير المقدسات من رجس البغاة، وقد كان الرجل متأففا من لقب والي مثل والي حلب أو البصرة، فطلب أن يكون ملكاً على مصر ويتوارث أبنائه الملك بعده، لكن الأستانة لم يرق لها ذلك فغيره ليكون "عزيز مصر" ووعدوه بذلك أذا قضى على الخوارج، كما قدمت له الأموال والسلاح والذخائر، وعدد من الخبراء في أوروبا، إضافة لحشد كبيرمن جنود الشام والعراق والمغرب.

في تلك الأثناء كان حاكم العاصمة السعودية (الدرعية) يتمتع بالبهجة والثراء، في قصوره المنيفة المليئة بأفخر الأثاث والرياش، وأطيب الملابس وألذ الأطعمة، والمحظيات من جواري فارس والروم والهند والحبشة، غير عابئ بما يدور في العاصمة العثمانية. وكان أقوى ثلاثة رجال في جزيرة العرب، شريف مكة وإمام اليمن وسلطان مسقط، يظهرون الولاء له ويرسلون له المال كنصيبه من دخلهم، ولا يسمحون لأحد سوى جنود سعود بالتعرض للسابلة. وجاءته رسالة كرد على خطابه إلى اسطنبول من باشا في الشام، يحذره من مغبة تعرضه لقوافل من هم "آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً" مع تساؤله عما إذا كان في ملته نشر الفساد في الأرض وقطع الطرق؟ وهل مذهب ابن حنبل يجيز قتل المعاهدين الذميين، وبتر أيدي وآذان وأنوف نسائهم وأطفالهم بقصد الاستيلاء علي حُليهم، حتى وإن كانوا في كنائسهم وصوامعهم، يقولون إن الله ثالث ثلاثة أو أن عُزيرٌ إبن الله؟ فكيف يقبل عمل ذلك ضد أهل القبلة، حتى وإن صدرت منهم مخالفات شرعية غير جسيمة، أو جهل ببعض التعليمات والآداب، التي أمر الله باستخدام الموعظة الحسنة لتصحيحها، وليس

القتل والسرقة، وهل هذا كل ما يعرفه عن التوحيد؟ ورسالة أخرى من باشا عراقي مليئة بالشتائم البذيئة، والتشبيه بالبهائم الدنيئة، وتوعد بإنزال أشد العقوبات عليه، أمر سعود بتمزيقها لعدم احتوائها على شيء من كلام الله ورسوله. ثم راجت في الحريق أنباء غير مؤكدة، عن أحداث كريهة في الدرعية، فقال البعض أن خمسة من أبناء سعود قد دبروا مكيدة لاغتياله، لكن أحد المشاركين وشى بهم فسارعوا للفرار شرقاً، وأرسل خلفهم فرقتين إحداهما من قحاطين الخرج وأخرى من مطران الزلفي، فألقوا القبض على أربعة منهم وفر واحد نحو بلوشستان، حيث قتل أكبرهم وسجن البقية. كان الجلساء مع والدي يتساءلون عن العدد الصحيح لذرية الإمام سعود، وتراوحت التقديرات بين عشرة إلى خمسين ويقول المرحوم أن الله وحده يعلم. عندما وردت أنباء عن وصول سفن كثيرة، تحمل عساكر والي مصر وجنود عثمانيون من مراكش والشام، يساندهم مستشارون وخبراء من أوربا، وقد نزلوا السواحل غرب المدينة المنورة، ساد القنوط والحزن في أسرة آل خثلان، وتنادى البعض منهم للقيام عاجلاً للدفاع عن الديار والوطن، حيث لم يعد من اللائق النأي بالنفس عن الجهاد الحقيقي، فهذه ليست رحلة للهجوم على المصلين في المساجد وتكفيرهم لوجود تصرفات غير ملائمة، ثم قتلهم وسلبهم للكسب المالي، بل هو صد لعدو يريد انتهاك حرم المسلمين، وبخاصة أن منهم بعض النصارى والزنادقة، لكن كبار الأسرة ومن بينهم علي بن حمد جد والدي وستة من بني عمه، اجتمعوا بعد الفجر وحتى الشروق للتداول حول ذلك، وانتهى الرأي إلى وجوب التريث، حيث أن الإمام سعود نفسه لم يقم للجهاد، بل أرسل بعض أولاده ومعهم نفر غير كثير، وأنهم يعتمدون على قبائل الحجاز للدفاع حيث هم أكثر دراية بأرضهم وناسهم، وقال أحدهم أن سعود يسرف في القتل، وقد قال الله أن ذلك لن يكون منصورا، وآخر ذكر أن جراحهم ما زالت دامية من عدوان أبو شوارب عليهم قبل ربع قرن ولن ينسوها حتى يوم البعث، وحث أحدهم الجميع على تناسي الماضي الذي عفا عليه الزمن فأعرضوا عنه، وختمها حكيم منهم أنه قد أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة. لكن ذلك لم يثني بعض أسرة آل خثلان عن السفر غرباً لصد المهاجمين، قائلين أن الجهاد ضدهم ليس فرض كفاية عليهم، بل هو فرض عين عليهم وعلى أهل الحجاز، ولم يكن جد أبي معهم.

لقد لقي الغزاة البغاة مقاومة باسلة من بعض قبائل الحجاز، بخاصة العدوانية والعصيمية والعتبان بقيادة ألمضايفي، كذلك السبعان بزعامة مصلط بن قطنان، وطامي بن شعيب الذي تولى قيادة قبائل عسير بعد استشهاد ابن عمه أبو نقطة، مع حشود غفيرة من الصالحين في قبائل جهينة وحرب وغيرهم، كما ساندتهم قوات

نجدية من سبيع وتميم وحنيفة ومطير، مما أوقف طوسون عن الزحف لحين وصول مدد من عند أبيه في مصر. وبعد شهور وصلت كتائب غير كثيرة بقيادة ضباط محترفين، من اليونان والبلقان المسلمين الذين مازالت بلادهم تحت السيطرة العثمانية، ومعهم ما هو أهم من الرجال، وهي أكياس من الذهب والفضة، وأنوه للأحبة أن الفضة آنذاك غالية، حيث كان ما يعادلها ذهباً يزيد عنها نحو اثني عشر ضعفاً، أما الآن فالذهب يعادل خمسة وثمانين ضعف قيمة الفضة. لقد قام الضباط بإغراء بعض شيوخ العشائر لينضووا تحت لواء طوسون الألباني، مما مكنهم بعد جهد من دخول المدينة المنورة، لذا فر أبناء الإمام سعود نحو مكة، عند والدهم الذي لم يكترث كثيراً للأمر، وبقي حتى أتم الحج وعاد للدرعية بعد أن كلف ألمضايفي بالدفاع عن الحرم، وانتهز الشريف غالب الفرصة ليغير ولائه نحو المصريين، فدخلت قواتهم مكة المكرمة وأتجه قائد السعوديين نحو إمارته في الطائف، لتكون الجبال جنوبها مركز شن الهجمات على ضباط الروم والترك. مما حرمهم الاستمتاع باستعادتهم المدينتين المقدستين، وبقوا في جلاد ومناوشات مع العرب سبب لهم خسائر كثيرة، إلا أن ألمضايفي وابن قطنان والمتحمي، شعروا بميول كثير من السكان نحو الأشراف وبغض للدرعية الوهابية! لذا اقترح عثمان الرحيل من الطائف شرقاً نحو الخرمة، لكن شيخ سبيع أشار إلى كثرة السادة فيها، وأوصى بالتوجه نحو رنية مع تحصين الخرمة، وجعل تربة خط الدفاع الأول. حينذاك بادر ابن قطنان بإرسال استغاثة لسبعان نجد، ليعاونوه بعد الله في صد العدو، وقد كان أول الواصلين كتيبة آل خثلان من بينهم الجد (الثاني) لوالدي، حيث باشروا في تعزيز الدفاعات عن رنية، وتجهيز الذخيرة وإعداد خطط مقاومة ودحر العدو الصائل، وقد كان القادة الكبار في معسكر غرب البلدة بنحو ساعتين، يجهزون خط الدفاع الأول ضد القادمين من تربة، وعلى الرئاسة ألمضايفي يعاونه مصلط السبيعي وطامي العسيري وعدد من قادة العشائر الأخرى، ولفيف من البقوم أهل تربة، الذين يتكونون من أحلاف معظمها من قحطان وبعضها عدنانية، وأشير للأحبة أن بعض التكتلات القبلية، ليست من عرق واحد بل يجمعها المصاهرة والجوار والمصالح الحربية، وقد كان زعيم البقوم الشجعان (الخرشان) مريضاً بشدة. بعد أيام وصل مرسال للسبعان في رنية، يدعوهم للغداء في مخيم مشائخ من بني صعصعة، وتوجهوا معهم شمالاً باتجاه الخرمة لثلاث ساعات، فوجدوا الترحيب من القوم من العصيمية والسعدية وهوازن وثقيف وغيرهم، وهم من صعصعة نسباً أو حلفاً، ومعهم رهط من أشراف الخرمة. بعد الطعام جلسوا للقهوة واندهش جدي حينما تحدث أحدهم عن وجوب ترك الولاء للدرعية، فضج المكان

باللغط حول ذلك في جدال طويل لا يتسع له الملخص، بل نسرده في السيرة. في الختام أشار علي بن حمد إلى أهمية البعد عن نقض العهد، كما قال أحد آل خثلان إنهم لن يقبلوا الغدر ولوا أعطوا كل ذهب وفضة المصاروة، فغضب أحد العتبان وقال إن الخيانة عند زعيمكم، الذي قبل نقض عهده مع صهره شريف مكة، لقاء منحه كرسي حكم الطائف من الأمير عبدالعزيز قبل عشر سنوات. ولما أحسوا بالغيظ لدى الضيوف، سارع أحد رفاقهم للقول أنهم تركوا الدرعية وعادوا للشريف لعدة أسباب، أولها أن الأمير سعود يكفر الناس على مخالفات يسيرة، بينما يجيز لنفسه وبطانته المحظورات، وثانيها استمرار الدرعية في أعمال القتل والسلب ضد قوافل التجار، بل وحتى العجزة والنساء والأطفال في بيوتهم، وثالثها هو رضاهم عن معاملة الشريف لهم، لم يقنع السبعان بذلك وردوا أن سعود لديه مزاج حاد، قد يؤدي لتصرفات طائشة قليلة، لكن الترك أهل بدع وإجرام ضد الديار المقدسة وأهلها، لذا فلن يقبلوا الوقوف في صفهم، حتى لو ظلمهم ابن سعود، فهو قائم بأصول التوحيد. عاد القوم إلى رنية بغصة وبغض للفتن، التي تؤدي إلى سفك الدماء وتلف الأموال وقطع الأرحام، آسفين لاضطرارهم لمقاتلة ذوي القربى، الذين اختاروا مساندة العدو الأجنبي ضد بني جلدتهم، قال الجد قاتل الله الفتن فهي تؤدي للخبائث، ورد عليه أحد الجماعة، بل لعن الله "النزاع على السلطة" فهي أم الآفات، فجاءه الجواب نعم، ولكني لست شتاماً ولا لعاناً. جاءت جحافل الغزاة من الطائف نحو تربة، يقودها معاون الباشا ضابط تركي لقبه "البيه" وقام ألمضايفي بتقسيم المدافعين إلى ثلاث فرق، أكبرها بقيادته واتجه معظمها للناحية الشمالية للبلدة، وأرسل بعضها صوب الشمال الشرقي خوفاً من كمين قد يأتي من الخرمة، وتولى السبعان بقيادة القطنان الدفاع عن الطرف الجنوبي الشرقي، وكان ضمنهم آل خثلان وكثير من العرينات وبني ثور والجبور، أما طامي ومعه حشد من المتحمية ورفيدة وألمع وآل بريد وغامد، فتولوا الجهة الجنوبية الغربية. بدأت مدافع الترك الضعيفة تدك الطرف الغربي لتربة، وتمكن المدافعون من صد هجمات لبعض المشاة الذين حاولوا التسلل داخلها، وأوقعوا فيهم خسائر فادحة مما اضطرهم للتقهقر. في اليوم التالي قام طامي ومعه أهل عسير بالهجوم على الجناح الجنوبي للمصريين، وقتلوا منهم أعداد غفيرة وشتتوا جموعهم، كما خرج من تربة عدد كبير من المقاتلين، اصطدموا مع مقدمة العدو وأصابوهم في القلب، مما اضطر البيه لإصدار أمر بالتراجع غرباً. عند طلوع شمس الغد تزامن وفود دعم كبير جاء من بيشة وبلجرشي، مع خروج جيش عرمرم من داخل تربة، شق غبار الميدان واتجه مباشرة نحو قلب الجيش المعادي، مما دعا إلى انسحاب

فوضوي للعساكر، ولم يبقى سوى المصابين أو المربوطين بالسلاسل، وكانت تلك القوة بقيادة امرأة تدعي غالية البقمية، وهي أرملة رئيس تربة الذي توفي في مرضه، وكانت تحمل سيفاً أشبه بساطور كبير وبندقية حديثة وتلبس درع الحرب، ممتطية جواد أبلق أصيل يحيط بها نحو خمسين من محارمها، وهي تصيح مستحثة الجموع على الثبات عند اللقاء، وسؤال الله النصر على الأعداء، محفزة المسلمين على عدم ترك الحرمين في أيدي الغرباء، ويتبعها المئات من مقاتلي البقوم الشجعان، الذين أعملوا الحديد والنار في جنود العدو، وأجبروهم على الفرار، كما اتجهت قوات السبعان المرابطة في شرق وجنوب تربة نحو الغرب تقتل وتأسر عساكر البغاة. بعد العصر هدأت العاصفة وانكسرت حرارة شمس برج الأسد، وتبين أن الضباط من الترك والمجر والبلغار ورومانيا، كانوا أول الفارين نحو الطائف، وتبعهم المصريون الذين ادعى الأسرى منهم أنهم سيقوا للمعركة بضرب السياط، مثل الجمال والبغال لا حول ولا قوة لهم، وأكثرهم من بلاد الصعيد والنوبة ومعهم قليل من المغاربة والأشوام. قام طوسون بسب وإهانة وسجن بعض ضباطه المنهزمين من جيش تقوده سيدة، لكنه في ورطة فقد كان لا يستطيع الزحف شرقاً نحو نجد، بينما خاصرته اليمنى مكشوفة لتجمعات القبائل، في الجبال العسيرة جنوب الطائف، لذا حاول استخدام طريق آخر شرق المدينة المنورة، وقد أرسل شرذمة من عساكره والبدو نحو القصيم، فبرز لهم السعوديون ونفر من المخلصين لدعوة التوحيد وأجبروهم على الهروب. آنذاك شعر ألمضايفي ببعض التوعك، لذا قرر أن يعود إلى أهله لصيام رمضان وقضاء العيد معهم، كما توجه آل خثلان لبلدتهم لإدراك الشهر الفضيل مع الأهل وأكل رطب نخيلهم، وكان حديثهم الدائم بعد التراويح، عن البقمية النشمية المقاتلة المستحثة لهمة قومها، بأن لا يتركوا حجاز الحرمين نهباً للترك والروم. بعيد العيد ضاقت خواطرهم بنباء الغدر بالمضايفي، حيث جاءه أخواله العتبان وأمنوا سلامته، ليذهب معهم لمقابلة صهره غالب في مكة، الذي أكرمه ثم أرغمه على الذهاب لمصر، لكنهم ربطوه بالحديد وساقوه إلى اسطنبول، حيث أمر السلطان المتغطرس بشنقه في ساحة أمام (آيه صوفيا) مسجد حاجة صفية، وغرسوا في صدره ورقة فرمان إعدامه بخنجر لأنه وهابي خارجي، عليهم من الله ما يستحقون.

أدت تلك الأحداث والانكسارات إلى تدهور نفسية قوات مصر، بخاصة بعد مرور سنتين على الغزو، لكن المقاومة مستعرة وتتزايد، رغم الخيانة من بعض البادية وسادة مكة، الذين تواطئوا مع العدو، مما دفع والي مصر للقدوم بنفسه لقيادة الجيوش وتنظيم الحج، إلا أن مقاومة السعوديين لأولئك الأوغاد ازدادت، مما حرض محمد علي

لترتيب إقامة دائمة في مكة، التي لم يعجبه هواها وناسها وأوبئتها. بداء بالقبض على حليفه الشريف غالب، ومصادرة أملاكه وجواريه ونفيه خارج الحجاز، وعوضه عن ذلك بقروش كثيرة تسك في مصر، من النحاس والحديد والنيكل ولا تساوي شيء ويسمونها النِكله، ومن أهم الأملاك منزل جياد أعلى الجبل، الذي طوره الشريف في عشر سنين ليصبح قصراً، ثم جاء والي مصر وسكنه وحوله إلى قلعة، فيها قشلاق لجنوده ومهد الطريق لتصعده الركائب. ولم يكفه ذلك فأرسل إلى مصر ليجلبوا له بعض محظياته، مع عدد من الطباخين والمزينين، بل وخبراء الدخان والشيشة (غليون فارسي أو تعميرة) وكل يعرف فنه في الأطايب والملذات، وسكن معظم وقته في جدة، حيث كان في مكة كثير من أهل الورع ينبذون التتن والجراك، لذا أمر بثقب حائط مجلسه لتمرير أنبوب الشيشة (النارجيلة) من الغرفة المجاورة، وبقي لعدة شهور عاجز عن دحر المقاومة جنوب الطائف، وخائف أن يتقدم شرقاً نحو نجد، لكيلا يقع في فخ بين القوتين، بينما رجاله ينشرون الفسوق جوار الحرم. في تلك الفترة زين بعض بادية المدينة لطوسون باشا غزو القصيم، قائلين أن عشائر من حرب وغطفان هناك سوف تساعدهم، فأرسل معهم شرذمة من عساكره، لكن قوات سعود الكبير اجتاحتهم وشتت شملهم. كما زين للأمير بعض شياطين الأنس والجن الذين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم بزخرف القول، وقرر أن يخرج في نفر قليل من رجاله نحو الصمان، وأمر أحد الثقات أن يغادر الدرعية بعده ببضعة أيام، ويصطحب بضعة آلاف ويتوجه بهم نحو شرق المدينة المنورة وينتظره، وهناك هجموا جميعاً على حامية المسجد النبوي، ففر عساكر الحملة المصرية وتحصنوا مع زملائهم في القلعة. دخل المسلحون الحرم وقبضوا الأغوات وأمروهم بفتح الحجرة، ثم انتزعوا ألماسة الكوكب الدري وعلبتها من عمود الرخام وهرولوا نحو الشرق. في الدرعية غضب الكثير من ذلك التعدي، بينما قال آخرون إن الباشا كان يزمع نصبها خارج المسجد، ويعمل مثل السامري قائلاً هذا إلهكم وإله محمد فنسي، فيظلون عليه عاكفين! عبر آخرون عن استيائهم بالتأكيد أنه خلال شهور منذ دخول المدينة لم يسمحوا لأحد بالتعرض للمرقد الشريف.

لم تمض مدة طويلة حتى توعك الأمير (الإمام سعود أبو شوارب) ثم أصبح لا يقدر على تناول الطعام، وإذا غصب نفسه عاجله القيء، ثم انحبس الخارج من سبيليه، وبعد أيام من العلاج تورم بطنه أسفل السرة، ثم دخل في غيبوبة ومات. هذا ما قصه أحد المجالسين عند أبي، نقلاً عن جده الذي كان من خواص العاملين في القصر، وكان والدي يشكك في الرواية التي لم تسرد من أجداده، بينما سرد آخرون روايات

مشابهة والله أعلم، ولولا ما فيها من خبر ما سردتها للأحبة، وقد يكون بها عبرة لأولي الألباب. تولى رئاسة الدرعية بعد سعود أكبر أبنائه، الذي كانت طباعه على النقيض من والده، فهو طيب المعشر هادئ المزاج، غير شغوف بسفك الدماء، لكنه ضعيف الرأي قليل التدبير. نازعوه إخوته القرار في الدفاع، ولم يوقروه مشائخ العشائر، حيث يرفعون أصواتهم في حضرته، بل ويشير البعض بأصابعه نحوه، ويتخاصمون ويتشاتمون عنده، وهو ما لم يكن يجرؤ عليه أحد زمن والده. لكن الله قيض له رجل من أهل الصلاح والتقوى، أخذ يستمع لنصائحه وإرشاداته السليمة، وهو علي ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، الذي لا يدله إلا على سبل الفلاح، وقد عم الهلع عندما جاء الفزيع يستنهض أهل الدرعية واليمامة والعارض، لإرسال المدد لأهل الحجاز الذين أعد لهم الألباني الخبيث جيش عظيم، قيل أن عدده ينوف على الخمسين ألف مقاتل، مجهزين بأحدث السلاح والذخيرة والمدافع، وذلك ليقضي على مقاومتهم للغزو، ثم يتفرغ للتوجه إلى نجد في أمان. لقد نصح الشيخ علي الأمير عبد الله بن سعود، أن يجند جيشاً جباراً يضع على قيادته إخوته المشاكسين، ويتألف من عشائر المتبجحين، ويرسلهم لمساندة أهل الحجاز، على أن يبقى شرق الطائف ليعزز من قدرتهم ويشكل فخ يكمن للغزاة ويهاجمهم في الوقت الملائم. لم يتحمس الخثالين للنفير مع أبناء أبو شوارب الذين عرفوهم سابقاً، لكن الأمر تغير حينما وصلتهم رسالة سبعان رنية بعجزهم عن صد المعتدي، إلا بعون من الله ثم بإخوانهم من سبعان العارض، لذا هبوا عن بكرة أبيهم للدفاع عن الديار، وعند وصولهم هناك وجدوا قلة من المقاتلين، حيث نفر الكثير شمالاً فتجمعت قوات كثيفة جنوب الطائف، بها حشود ضخمة من جنود الحجاز ونجد، لذا سارعوا بالتوجه نحو وادي "بسل" وقد اتفق الجميع أن يتولى القيادة الشيخ طامي العسيري، حيث أن أكثر من نصف الرجال في ذلك الميدان من جماعته ومن بيشة وغامد وزهران والبقوم، كما أن أكثر الركائب معهم، وهم قناصة مهرة وشجعان في المنازلة، ومعهم السبعان والدواسر وبعض العتبان الذين استمروا على بيعتهم لحركة التوحيد. أقبل محمد علي باشا الألباني (أبا التتن) كما يسميه مرافقيه من العربان، في جحفل ضخم قدره البعض بما ينوف على خمسين ألف مقاتل، كان أكثرهم للأسف من قبائل الحجاز الذين غدروا عهدهم مع الدرعية، واختاروا التبعية للترك أو الشريف. كان سبعان العارض قد اتخذوا مواقعهم على سفوح الجبال مع القطنان، بينما تفرق رجال طامي المتحمي في السهول والتلال المجاورة للوادي، واشتد برد الحوت ليلا على آل خثلان فأوقدوا النيران أسوة بغيرهم، فقال أحدهم هذا بسل ما معناه، فأجابه آخر أنه الجزاء والعقاب فرد عليه زميل، بل

ربما من البسالة والشجاعة، لكن الجد أشار لقوله تعالى أن تبسل نفس بما كسبت. عند وصول الباشا قربهم هاله المنظر المهيب، لذا تراجع للخط الخلفي وأمر الشريف الراجح أن يتولى قيادة أعراب المقدمة، بينما قادته الأوروبيون يوجهون عساكره من الترك والمصريين وقبائل اللوبيك (ليبيا) والموريك (موريتانيا ومراكش) وقلة من أهل الشام وجنوب العراق من شمر وعنزة والظفير. كانت القوة السعودية بقيادة أبناء سعود الكبير، تكمن في شمال شرق الوادي تراقب الوضع، بينما أخوهم الإمام عبدالله على مسافة بعيدة شرق الطائف، عند الفجر لم يسمعوا أذان أو إقامة للصلاة في معسكر العدو، لكن أحدهم شم رائحة التنباك الكريهة، وتبين على ضوء الخيط الأبيض للصبح شرقاً، أن بعض الروم يعاونهم بدو يحاولون سحب ثلاثة مدافع، أعلى تل صخري في وسط السهل لذا سارع طامي وبعض رجاله للفتك بهم، وهاجت بقية رجال التوحيد ذوي النوايا الطيبة، وهجموا على البغاة المتعبين من وعثاء السفر والنعاس، وأعملوا فيهم الرماح والسيوف والرصاص، مما دفع الكثير منهم للفرار تجاه الخطوط الخلفية عند الباشا، وصمدت فرقة قوية بقيادة الارناؤوط وكتائب من جنود الألبان، وعندما بداء بعض السبعان الانحدار نحو السهول، نصحهم الجد علي بالبقاء في أماكنهم احتراماً للأوامر، لكن قلة منهم رفضت وتوجهت لجمع الأسلاب. أصيب العدو بهزيمة وانكسار، وتراجع كثير من جنوده في فوضى، وفر بعضهم نحو الطائف ومكة، كما تناثر أعراب ممن دعموا الباشا إلى قراهم الحجازية، وتخلت القوة السعودية بقيادة الأمير فيصل بن سعود عن مكمنها، فدخلت الميدان وتعقبت الفلول بعد أن انضم إليهم بعض أعوان الباشا من البدو، الذين تتقلب أهوائهم أسرع من الريح. بعد العصر اتجهت شمس النهار القصير نحو الغرب، وانشغلت قوات أهل التوحيد بمداواة الجرحى ودفن شهدائهم، وآخرون اهتموا بجمع الغنائم من سلاح ولباس ومال، وتوجهوا للنوم فرحين بالنصر السهل، لكن في خيمة الألباني كان الباشا يعد خطط مع ضباطه المحترفين، ومع قادة البدو والأشراف. عند طلوع الشمس شاهد آل خثلان لأول مرة الباشا الألباني، ممتطياً صهوة جواد مغولي ضخم يعادل البعير، وعليه حلة مطرزة بالرتب الذهبية، وعلى صدره النياشين والمعلقات، وعلى رأسه قلنسوة حمراء وعمامة ذات لفائف عديدة، يحيط به المئات من كبار معاونيه وقادته، ومن خلفه آلاف من العسكر العثماني، والشمس تشرق آنذاك بميل نحو الجنوب وهو هابط من الشمال، لذا لم يشاهدوا ميسرتهم جيداً، بينما تمعنوا هم فيهم وحددوا موقعهم بدقة وفي دهشة، حيث كان محمد علي دوماً في المؤخرة، ثم اندفعت من الشرق نحو ساحة الوغى عدة آلاف من رجال التوحيد، يقودهم الأميران فيصل وإبراهيم ابني سعود الكبير، فأصيب

كثير من الناس بالقنوط من مظاهر الترف الزائد، حيث أسرجة الخيل ولجامها من مواد مذهبة ثمينة، والناس في شظف لا يجد بعضهم الطعام الكافي، وصدر الأمر للجماعة للنزول من التل الشرقي والهجوم على قلب كتائب العدو. وجدوا القوم قد أعدوا خطة لإرسال كتيبة من "الفداوية الطيارين" ترتدي الدروع السميكة وتحمل السلاح الحديث، تتكون من ستين شاباً قوياً على خيول أصيلة، وتشق الصفوف متجهة نحو الباشا، وكان في صحبتهم عدد من آل خثلان، بينما الجد علي يتابعهم ويدعو الله لهم بالتوفيق. كما حاولت فرقة أخرى من القناصة "البواردية" التربص لكبار القادة الأفرنج واغتيالهم، لكن طلقات بنادقهم لم تكن قاتلة على بعد يزيد عن مائة خطوة، كما حاول بعض البقوم بتوجيه من غالية القيام بعمليات مشابهة. صدرت أوامر لضباط المدفعية لإطلاق القذائف صوب تجمعات المسلمين! لكنها لم تكن فعالة في ساحة الوغى الفسيحة، بل تصلح لدك الأسوار والحصون، لذا تفرق المدافعون إلى عدة كتائب اتجه أكثرها نحو موقع الباشا، الذي أحاطه جمع غفير من عساكره، ونحاسهم الأصفر يتلألأ تحت أشعة الشمس الساطعة. عند ذاك شعر العدو بالخطر الداهم، وخافوا من اندفاع فرقة من أهل التوحيد نحوهم من جهة الشمال الغربي، لذا قرر الباشا لي فرسه وفر باتجاه الشمال الشرقي، فهلل الجد علي ومن معه وكبروا وتوجهوا لمطاردة الهاربين، وكانت الجمال أسرع من الخيل في السهل المليء بالحجارة، وقد أيقنوا بقرب الفوز. لكن الله غالب على أمره، ففي لحظة ظهرت في الأفق الشمالي غيمة داكنة، تبين فيما بعد أنها فرقة الشريف راجح التي تزيد عن عشرة آلاف مقاتل صنديد، كلهم من عرب الحجاز من ثقيف وعتيبة وسعد وحرب وجهينة، كما يوجد بينهم للأسف عدد من بني صعصعة (جد سبيع) الذين آثروا موالاة الباشا العثماني، زاعمين أنهم يتبعون الأشراف! اتجهت معظم القوات المعادية نحو فرقة طامي (أبو نقطة) الذي أصيب بجرح خفيف، وتمكنت من إحداث شرخ عميق في أهالي عسير، لكن المصيبة كانت في تشتت فرق التوحيد، ودخول الوهن عليها لكثرة القتلى في الميدان، فلجاء عدد منهم نحو سفوح التلال للتحصن فيها، وزبنوا أماكن مرتفعة يطلقون منها البارود على المهاجمين، الذين تمكنوا من السيطرة على السهل، رغم المقاومة الشجاعة من فرقة الأمراء. في تلك الساعة الكئيبة عند انحدار الشمس للمغيب، قرر آل خثلان التوجه نحو مقر ابن قطنان شيخ السبعان وزعيم رنية، فرفض الحديث حتى يتناولوا معه الطعام، ثم طمأنهم أن أبناء الإمام سعود وطامي والخرشان وبقية القادة في سلام ورباطة جأش، وقد قرروا المسير ليلاً نحو تربة لإعادة تجميع

القوات، والحصول على مزيد من الإمدادات، وأن عليهم مع بقية سبعان العارض الرحيل إلى هناك سريعاً، لخطورة البقاء في بسل التي سيطر عليها الباشا.

في تربة (صفر الخير) وجدوا أن أقل من عُشر المقاتلين تمكنوا بعد لأي من الوصول سالمين، وقد تفرق الكثير في الجبال لمعالجة الجرحى، أو الالتحاق بأهلهم وديارهم حيث أعياهم النضال ضد العثمانلية، لم تكن غالية في البلدة لكن أحد آل خرشان قال لهم، إنها كمنت في الجبال الشاهقة غرباً عند الحُرث، وهي في انتظار الإشارة باستئناف المقاومة، وطامي لم يبق معه سوى نفر قليل، أما بقية أهل بيشة وزهران وشِهر فقد بايعوا الباشا على السمع والطاعة لخليفة المسلمين محمود في الأستانة. ظلوا عدة أيام في مداولات فكرية، ومحاولات عملية لتجنيد مزيد من الجنود لدحر العدوان، ويعالجون جراح الرفاق، أما الجد علي فقد استغرق في مطالعة واستماع الأمراء، سواء من أبناء سعود الكبير أو ذرية الإمام محمد بن سعود أو آل مقرن بن مرخان، ولم يلفت انتباهه سوى الأمير فيصل بن سعود، ذو الملامح الرقيقة والسمات اللطيفة، مع ولع واضح بالدعة والفخامة، ذو شجاعة متهورة وتصرفات بعضها طائش ولا يحب الناصحين، كان يتعجل في الكلام والرد والجدال مما يوقعه في الزلل أحياناً، مع شخصية جذابة ومتميزة. بعد حين وصلهم أحد السبور مهرولاً بنباء توجه الباشا نحو تربة، ومعه كامل عساكره وعتاده، وأنه يريد ثلاثة أمور، أولها القبض على الأمراء ثم التخلص من طامي، وثالثها إرسال غالية للسلطان، الذي أعجب بما سمعه عن شجاعتها. لذا تحول البحث حول جدوى مقاتلته أو مغادرة البلدة، لم يزد رأي الجد عن قوله تعالى إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، لكن نهاية الرأي والأمر للكبراء، لذا تقرر أن يتوجه كافة الأمراء نحو ماء الدفينة، حيث يتواجد الإمام عبدالله بن سعود، مع قوات كثيرة من أهل القصيم والعارض، ليدافعوا عن عالية نجد الغربية، إذا قرر الباشا التوجه نحوها. أما الشيخ طامي أمير قبائل عسير فقد كتب رسالة للإمام، جاء فيها عن وقوفه وجماعته معه إذا قرر القتال، لكنه يوصي أن تجري معاهدة مع الباشا، بعدم التعرض للحرمين وقوافل قاصديها، حتى ينصرف عن التوجه نحو نجد، كما زاده أن ما فهموه من الأسرى أن اسطنبول حالياً تركز قوتها على جزيرة العرب، إلا أن عساكرها قد انزعجوا من حر وعطش البلاد في الربيع، فما بالك حينما يدخل عليهم قيظ نجد، لذا فقد يكون الوقت ملائماً الآن للهدنة. وقرر الجميع مغادرة تربة نحو رنية، وعندما تفقد الجد خبرته من الخثالين لاحظ غياب نفر منهم، وأجابه أحد البسطاء أن "الربع ربما وصلوا بالسلامة-

- لديارهم أرض اليمامة-- بلد المرؤة والكرامة" فوبخه على ذاك الزجل الساذج في الزمن الصعب.

باشروا فور وصولهم لتقوية تحصينات رنية، وإرسال طلب المدد والذخيرة من سبعان الوديان والقرى المجاورة، ووردهم خبر محاصرة الباشا لتربة، وكيف أن بعض البقوم سارعوا لقبول شروطه، رأفة بالنساء والأطفال والضعفاء، ووعدهم برد ما فرض عليهم من الفضة لقاء إحضارهم غالية، مع عهده ألا يمسها سوء. لكنها رفضت ذلك بشمم مذكرة الرسل بما جرى للمضايفي، بعد أن مُنح العهود ثم تبين رخصها لدى الطواغيت، وآثرت أن تبقى في مكمنها لحين اتضاح الحال. قرر الباشا أن يتجه غرباً نحو جبال السروات، للعثور على غالية البقمية وأوكل للشريف راجح مهاجمة رنية، حيث يظن أن الأمراء وطامي فيها، وزوده بعدد من المدافع وكمية وافرة من الذخيرة مع آلاف الجنود، وكانت الأوامر أن يستسلم من فيها أو يبادوا، لذا باشروا في حصار البلدة ودك حائطها، وجرت رمايات مكثفة من الطرفين. ثم قرر طامي بن شعيب ومسلط بن قطنان وجوب الخروج لمنازلتهم، فاستدار السبعان من الخارج جهة الشمال الشرقي وباغتوا رجال الشريف، أما أهل عسير فقادهم المتحمي شمالاً نحو المدفعجية، وبارزوهم في التحام بطولي نفصله في صلب السيرة. فلما رأى الشريف ذلك امتطى صهوة جواده واندفع جنوباً نحو المقدمة، وتبعه المئات من العتبان والقحاطين في منازلة دموية مؤلمة للجميع، ولمصلحة الترك والخليفة الإسطنبولي، لذا قرر القائد التقهقر نحو داخل البلدة مع قواته، وتبعهم جمهرة غفيرة من الأعراب، فجرى قتال عنيف في الطرقات والبيوت، لم يتوقف حتى عم ظلام الليل، إلا أن بعض المهاجمين لم يرجعوا إلى الخارج، وبعد ساعتين فوجيء السبعان بالنار تشتعل في المنازل جنوب غرب البلدة، حيث أحدثت المدافع ثغرة كبيرة في الحوائط وهدمت بعض المنازل، ومع ارتفاع ألسنة اللهب سمعوا دوي انفجارات قوية، حيث أمر الشريف بوضع البارود في بعض الأماكن ونسفها، عليه من الله ما يستحق. اجتمع القادة وتقرر فوراً إخراج المحارم والصغار والعجزة، والتوجه بهم شرقاً نحو قرى سبيع، وأماكن لهم على امتداد وادي بيشة شمالاً، أما الشيخ طامي ورجاله فتوجهوا في ظلمة الليل جنوباً، واتجه إلى بلاده حيث توجد له قلاع حجرية حصينة في أماكن مرتفعة من السراة، أما الخثالين والسبعان فقد غادروا شرقاً بشمال نحو ديارهم في الأفلاج، حيث كان الشيخ القطنان جريحاً يرتب خروجه إلى مخباء شرقي، بعد أن يرتب مع بعض الخدم أن يتوجهوا فجراً للشريف، ويخبروه أن البلدة خاوية، ومن غير المجدي إنفاق مزيد من الذخيرة لهدم خرائبها! من ليلى توجه الجد علي رفقة جماعته، يطببون جراحهم

ويترحمون على شهدائهم، حتى وصلوا وادي نعام، وهم في كدر وضيق شديدين، يسألون الله العافية والسلامة من الفتن وشرها. في الحريق كان الناس يتحدثون عن المنازلة الكبرى في بسل، التي أنهت الوجود السعودي في الحجاز، وكيف أن القيادة العليا كانت للأمير فيصل بن سعود في جانب، وباشا العثمانيين في الطرف الآخر، لكن القيادة الميدانية الفاعلة كانت في يد طامي المتحمي ضد عميل الترك الشريف راجح، وتجرى مقارنات تهويلية مؤلمة. لكن المؤسف أكثر هو أنباء وردتهم بعد ذلك، حيث أخذ محمد علي يطارد طامي في تلك الجبال الوعرة، ثم حصر قلعته في أعلى جبل عسير، قرب المسمى حالياً جبل السودة (انتركونتننتال)وتمكن من جلب مدافع صغيرة رغم صعوبة السير، لذا اضطر طامي للنزول إلى تهامة عند قرية الجرف، حيث غادر أكثر قواته ما عدا رجال عسير وألمع، فقد ثبت معه من كان قوي الشكيمة ضاري العزيمة ساطع الشيمة، وهناك خانته فطنته، فقد أرسل إليه أحد المنتسبين للعترة الشريفة، ليقدم نحوه في المخلاف السليماني (جازان) واعداً إياه أن يتوسط له لدى قريبه شريف مكة، ثم حبسه وأرسله للباشا، الذي أرسله مكبلاً بالأصفاد ليطوفوا به شوارع مصر، ويحثوا الناس على سب الوهابي والملة الوهابية الكافرة، ثم نقل إلى اسطنبول حيث أعدم شنقاً، عليه رحمة الله وغفرانه. علماً أن بعض المصريين في المجلس ذكروا أنه قتل ومثلوا بجثته، أمام قصر شبرا شمال قلعة القاهرة الفاطمية، ولم ينقل لتركيا.

أمضى الجد وبقية أقاربهم جهدهم ووقتهم في رعاية عائلاتهم وأعمالهم، التي تدهورت أحوالها في تلك الفترة، والبعض يعالج جراحه وآخرون يزوجون ذريتهم، رغم ما قاله أحدهم لإبن عمه الذي أنفق الكثير على زفاف إبنته {ما كل هذا؟ إنما هن يبعدن الأقرباء ويقربن البعداء ويلدن الأعداء} فوبخه أكثر أفراد الأسرة، وأثنائها رتب الجد لزواج أكبر أبنائه لكن الأمر لم يتم. كما أخذوا في مكافحة الآفات التي أصابت بهائمهم ونباتاتهم، ويراعون تجارتهم مع مسقط والبحرين، ويقومون بواجباتهم تجاه ربهم، والمحتاجين من أهلهم وجيرانهم، ويكفون عن الناس أذى السفهاء والصعاليك منهم. بينما يترصدون أنباء العدو في الحجاز، سائلين الله أن يشغله بنفسه عنهم، فقد وردهم أن الألباني بعد فرار الأمراء من قبضته، واختباء غالية عن علمه، وقضائه على طامي، فقد كتب للسلطان محمود خان بأن نابليون قد فر من محبسه، وربما يخطط لغزو مصر لذا يستأذنه العودة لتعزيز المقاومة، كما يطلب المزيد من المال لدفع مشاهرة آلاف البدو العاملين مع ولده طوسون، للدفاع عن الحرمين غائلة هجمات الوهابيين، وقد تأخر الرد شهرين أنفقها في ترتيب أوضاع مكة، ثم توجه للمدينة ونظم

تحصيناتها، ووضع في البلدتين قادة من أصول أوروبية. في الحرم النبوي تجمهر حوله سدنة الروضة الشريفة، مناشدين إياه العمل على إعادة الكوكب الدري، لكنه لم يبد متعجلا حيث إنه كثير التشاؤم والتطير، وظن أن بقائها في الدرعية بشرى خير له! وصلت الموافقة على عودته لمصر ولم تصل الأموال، لذا أوصى ولده بالتوجه نحو القصيم لقربها من المدينة، ومعه بعض حروبها ليتعاونوا مع أناس من عشيرتهم هناك، ويفرضوا إتاوات على من يخالفهم، وهناك دانت له بعض البادية من مطير وعتيبة، طمعاً في نواله أو خوفاً من عقوبته. ثم انضوت الرس تحت لوائه وجعلها قاعدة لعملياته، وأخذ يقسو على من خالفه من القصمان، لكن بأسلوب حذر خشية سخط أبيه أو سلطان اسطنبول، إذا بلغتهم شكاوى الأهالي. وانقسم الأهالي إلى ثلاث فرق، الأولى شرذمة ترغب حكم الترك وما يسمحون به من حرية! كما الحال في البصرة وبغداد وسوق الشيوخ، حيث النصارى والروافض لا يعترضون على فجور العمل، والفئة الثانية ليست قليلة وتريد الالتزام الشرعي كما في الدرعية، لكن الفئة الكثيرة لا تريد هذا ولا ذاك، بل أن تكون القصيم تدير أمورها ذاتياً، بلا تدخل من إسطنبول أو الدرعية. وبناء عليه أعلن الإمام عبدالله النفير، وأرسل في طلب المجاهدين لقتال طوسون، وتطهير القصيم من مفاسده. ذهب عدد من أهل الحريق ومعهم نفر من آل خثلان، لمحاربة طوسون وأعوانه، أما الجد علي بن حمد فكانت جراحه في رنية لم تندمل بعد ولم يشارك معهم. في رمضان عاد أقاربه من القصيم، حيث قصوا عليهم المنازلات العديدة بين الإمام وطوسون، لكن شدة الحر أقنعت أحد الطرفين أو كلاهما بالصلح، وتم ذلك على أساس أن يبقى شرق القصيم (الزلفي) تابعاً للدرعية، وغربها (الحناكية) تابعاً لوالي المدينة المنورة، وأن يلتزم الطرفان بتأمين طرق الحج من العراق وفارس، وعاد طوسون وعساكره إلى مصر. سكنت الأحوال بعد هذا وانتظمت سبل تجارة الأهل مع البحرين ومسقط، وتمكن الجد ولفيف من الأسرة من الحج وزيارة الحرم النبوي، في هدوء ويسر حيث قام ولاة الباشا بتنظيم جيد للبلاد. لقد كان أكثر ما ينغص حج المسلمين آنذاك، هو "الأمن والمياه" فكان على كل خُبرة أن تؤمن الطعام والتنقلات والعلاج والسكن بنفسها، وقد تأمنت الطرق وبنيت في المشاعر أحواض ضخمة، جلبت لها المياه من وادي نعمان (منابع زبيدة) بعضها للبشر وأخري للبُدن (جمال وبقر) وغيرها للركائب (خيل وبغال وحمير) وصغيرة للبِهم (ضأن وماعز) وعاد الجميع شاكرين الله على فضله.